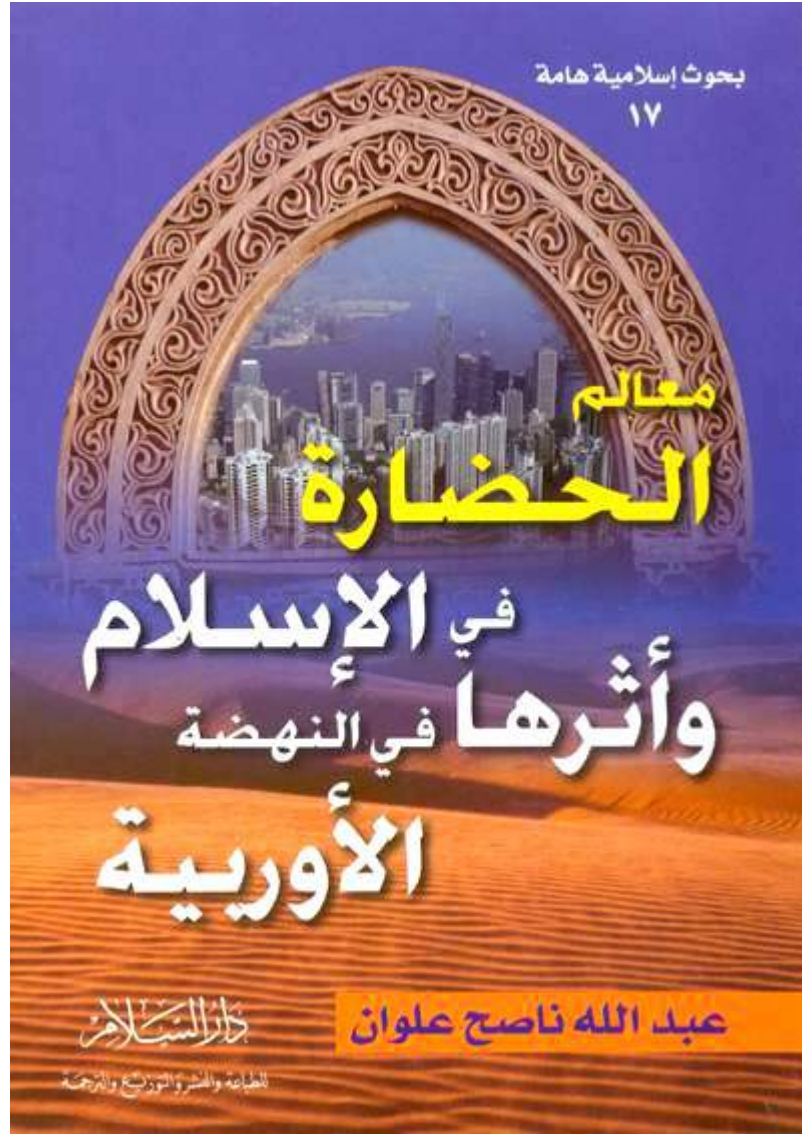




الإصدار الأول



فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٤	مقدمة وتمهيد
٧	١- مفاتيح الحضارة في ضوء مبادئ الإسلام
	● مبدأ العلم الشامل ● مبدأ التفكير في ملكوت ● مبدأ تكريم الله للإنسان ● مبدأ المساواة الإنسانية ● مبدأ الانفتاح والتعارف
١٨	٢- جوانب الحضارة الإسلامية وأثرها
	● ميدان العقيدة والدين ● ميدان العلوم المتنوعة ● ميدان اللغة والأدب
٥٢	٣- معايير الحضارة الإسلامية إلى المغرب
	● حالة الأوربيين في القرون الوسطى ● معايير الحضارة إلى الغرب ● شهادة المنصفين من الغربيين
٦٠	٤- النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية
	● منهج الإسلام في إصلاح الفرد واستقامته ● مبادئ النزعة الإنسانية
٨٢	٥- هل استنفدت الحضارة الإسلامية أغراضها

"إن العرب علّمونا صنع الكتاب ، وعمل البارود ، وإبرة السفينة ، فعلينا أن نفكر ماذا كانت

نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدينة العربية ؟ "

" جوتيّة "

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،
وعلى من دعا بدعوته واهتدى بهديه بإحسان إلى يوم الدين وبعد :
فكثير من شبابنا ، ممن هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا يجهلون معالم الحضارة في الإسلام ،
ويظنون أن الغرب هو الذي أبدع الحضارة ، وهو الذي أوجدها في العصر الحديث وهو أستاذها
ورائدها على مدى التاريخ ، وخلال العصور ...
ولكن هذا الادعاء لا يستند على الموضوعية والفهم ، ولا يركز على الحقيقة التاريخية
والوعى !!! ...

وهذا الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارئ - سوف تجد فيه إن شاء الله ضالك المنشودة
في الكشف عن معالم الحضارة في الإسلام ، والتعرف على مفاتيحها ، وجوانبها ، وأثرها ، ومعاربها إلى
الغرب ، . وتوضيح نزعتها الإنسانية في معاملة الأقوام غير المسلمة ! ! .
وأنا على يقين - بعد قراءتك لهذا الكتاب - من أنه سيكون عندك الإيمان الصادق ، والقناعة
الكاملة بأن هذا الإسلام العظيم هو مفتاح الحضارات ، ومبدع المدنيات . . بل تشريعه الخالد فاق كل
قانون وتشريع في الحياة . .

وأنا على يقين - بعد القناعة التامة - من أنك ستنادي بالإسلام العظيم دستوراً ومنهاجاً ،
وبالقرآن الكريم نظاماً وأحكاماً ، وبالرسول صلى الله عليه وسلم قدوة وإماماً ، وستكون من عداد
الذين هداهم الله ، وآمنوا بالعقيدة الإسلامية على أنها نظام حكم ، ومنهج حياة ، ومشعل حضارة . .
الله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه إنه أكرم مأمول وبالإجابة جدير .

مقدمة وتمهيد

قبل أن أتناول بحث "معالم الحضارة" بشيء من التفصيل يحسن أن أعرف "الحضارة" كما جاء على لسان أهل الخبرة والاختصاص .

يقولون : " الحضارة هي نتاج الإنسان المدني الاجتماعي بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية تحقيقاً لأهداف أمته ، وما ارتضته هذه الأمة لنفسها من قيم ومثل ومبادئ . . " ونستخلص من هذا التعريف شيئين :

أ - الحضارة هي طريق الحياة التي ارتضتها الأمة لنفسها في جميع المجالات الروحية، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والعمرانية ، والمادية . . . المنبعثة من قيم معينة ، ومثل محددة . .

ب - للحضارة جانبان :

الأول : مظاهر الرقي المادي الذي يشمل جميع جوانب الحياة من صناعة ، وتجارة ، وزراعة ، واختراع وفنون . .

الثاني : مظاهر الرقي المعنوي الذي يتصل بالقيم الروحية ، والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكري والإبداع الأدبي . . .

وبناء على هذا التعريف والاستخلاص نقول : إن الحضارة لا تكون ذات طابع إنساني لدى الحضاريين حتى تتصف بالرقي المادي والمعنوي على حد سواء . ذلك لأن الحضارة - حسب التعريف الآنف الذكر - لا تقاس بالتقدم العلمي أو الصناعي أو الآلي أو العمراني . . . إلا بمقدار ما يكون ذلك تعبيراً عن مقاصد إنسانيه صالحة وتجسيدا لمبادئ خلقية فاضلة . .

ولقد أجمع المختصون من رجالات التربية والإصلاح والاجتماع في كل زمان ومكان على أنه لايلزم من وجود الرقي المادي في بيئة من البيئات وجود حضارة إنسانية بالمفهوم الذي أوضحناه ، إذ قد توجد

أمة متفوقة مادياً ومتقدمة علمياً وصناعياً . . ولكنها غير متحضرة إنسانياً ، وغير ناهضة روحياً
وخلقياً !! .

وأوضح مثل على ذلك تلك التفرقة العنصرية بين البيض والسود التي ترفع لواءها اليوم " أمريكا
" . . هذه الدولة تعد - في نظر الكثير - من أعظم دول العالم في الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعي ،
والاختراع العلمي . . ودع عنك استعباد الدولة الشيوعية لأفراد شعبها ، أو استعبادها لأبناء المسلمين
الواقعين تحت سيطرتها ونفوذها ، فإنها وصمة عار في جبين الإنسانية ، بل همجية وتسلط لم يشهد مثله
التاريخ !! .

فضلاً عن أن ذلك الرقي المادي لتلك الدولة استخدم - وبالأأسف - في إشعال نار الحروب
المدمرة التي ذهب ضحيتها الملايين من البشر ، واستخدم أيضاً في استعمار الشعوب المستضعفة التي
لا تملك لها حولاً ولا قوة . . من أجل سلخها عن أوطانها أو عن عقيدتها ، ليحل محلها شعب آخر
يعيش في ربوعها فساداً وظلماً وعدواناً !! .

غير أن ذلك الرقي المادي - غير الإنساني - لابد سيصيبه من الفناء والدمار ما أصاب حضارات
عظيمة في التاريخ - لم تسم بالطابع الإنساني - علت في الأرض، وسادت زمناً، ثم أخذت على حين
غرة ، فأصبحت أثراً بعد عين ، وخبراً في بطون التاريخ . . . وصدق في حقها قوله تبارك وتعالى :
﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً
فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ [يونس : ٢٤] .

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم : أن أمريكا وروسيا وغيرهما من الدول يمكن أن نقول عنها إنها
متحضرة مادياً .

ولا نقول عن أمة بأنها ذات حضارة حقيقية حتى تتحضر مادياً ، وتتحضر روحياً وتتحضر
إنسانياً . .

عندئذ تكون من عداد الأمم التي لها في التاريخ ذكر ، وفي الأجيال قدوة ، وفي سجل الحضارات نصيب . . بعد هذه المقدمة لابد أن تعرف - أخي القارئ - ماهية الحضارة في الإسلام ، هل هي تتصف بالمادية أم تتصف بالإنسانية أم تتصف بالوصفين معاً ؟

وهذا البحث الذي بين يديك سوف يكشف لك - أخي القارئ - بوضوح عن ماهية الحضارة الإسلامية ، وعن مواصفاتها العامة ، وعن جوانبها المتعددة ، وعن معابرها في الشرق والغرب . . عندئذ تدرك تماماً الحقيقة التي انطوت عليها حضارة الإسلام بل توقن من قرارة نفسك ، وأعماق وجدانك . . على أي مبادئ تميزت بها شريعة الإسلام ؟ وعلى أي خصائص انطوى عليها هذا الدين العظيم ؟ !! .

ولكي أحيط ببحث " معالم الحضارة " من جميع جوانبه يحسن التعرض للنقاط التالية :

- ١ - مفاتيح الحضارة في ضوء مبادئ الإسلام .
 - ٢ - جوانب الحضارة الإسلامية وأثرها في بناء الأمم .
 - ٣ - معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب وثناء الغربيين عليها .
 - ٤ - النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية .
 - ٥ - هل استنفدت الحضارة الإسلامية أغراضها ؟
- وسأتكلم عن كل نقطة من النقاط الخمسة بشيء من التفصيل ، وعلى الله قصد السبيل ومنه نستمد العون .

الفصل الأول :

مفاتيح الحضارة في ضوء مبادئ الإسلام

لا أعلم دينًا سماويًا من الأديان ، ولا نظامًا من الأنظمة . . . فتح للإنسان مغاليق المدنية والحضارة ، وبصّره طريق العلم والمعرفة ، وعرفه حقائق الكون والحياة . . كالذي فعلته الشريعة الإسلامية الغراء .

ذلك لأن الإسلام ينطوي على المبادئ الأساسية التالية :

أ - ينطوي على مبدأ العلم الشامل :

فالله سبحانه كرم العلم ، وكرم القراءة ، وكرم القلم . . في أول آية نزلت من كتاب الله عز وجل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١ - ٥] .
والله تعالى قرن الإيمان بالعلم إشارة إلى أن العلماء أعلى مقامًا ، وأرفع منزلة . . من غيرهم ، قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة : ١١] .
والرسول عليه الصلاة والسلام جعل مقام طالب العلم في صف المجاهدين لإعلاء كلمة الله من ناحية المنزلة والأجر . . روى الترمذي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال :

" من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " .

والرسول صلى الله عليه وسلم اعتبر الطريق الذي يسلكه طالب العلم للعلم طريقًا مؤديًا إلى الجنة ، روى مسلم عنه عليه الصلاة والسلام : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ " .

وعلى ضوء هذه الروح العلمية التي رفع منارها الإسلام نجد أن "البيروني" حينما حضرته الوفاة ، دار الحديث في مجلسه حول مسألة من الإرث المعقّدة ، فطلب "البيروني" من أحد الحاضرين أن يوضحها له . فقال له الزائر : في أي حال أنت وتساءل عن هذا ؟ ! .

فقال البيروني : لأن أذهب إلى الله وأنا أعرفها خير من أن أذهب إليه وأنا أجهلها " .
والعلم في الإسلام يشمل كل علم نافع سواء أكان العلم دينياً أو دنيوياً ، نظرياً أو تجريبياً ، فرض عين أو فرض كفاية . .

مادام أنه في خدمة الدين والدنيا ، ومادام أنه لرفع منار المدنية والحضارة ، ومادام أنه واضح لصالح الحياة والإنسانية . .

ومما يؤكد شمولية العلم في الإسلام :

أن الإسلام حين حضّ على العلم لم يقيده بالعلم الديني أو الكوني أو النظري أو التجريبي . . وإنما أطلق لفظ العلم ليشمل كل علم نافع ينفع الأمة في دينها ودنياها .

فالله سبحانه حين يقول : ﴿ وقل ربّ زدني علماً ﴾ [طه : ٢٠]

لم يقيّد ذلك بعلم الدين ، ولا بعلم الدنيا ، وإنما أطلق اللفظ ليشمل الأمرين معاً ، أو بعبارة أوضح ليشمل كل علم نافع في الحياة . .

ومما يؤكد شمولية العلم في الإسلام :

أن الله سبحانه حين قال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ [الأنفال : ٨]

فالإعداد هذا يشمل الإعداد المادي ، والإعداد الجسمي والإعداد المعنوي . . فكل علم يهيئ لهذا الإعداد يكون تعلمه من قبيل فرض الكفاية لأمة الإسلام . .

وبناءً على هذا كان تعلم الهندسة ، والفيزياء ، والكيمياء ، والذرة والكهرباء من قبيل فرض الكفاية في مجتمع المسلمين إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقيين ، وإن لم يقم به أحد فالكل آثمون في نظر الإسلام .

كان تعلم هذه العلوم من قبيل فرض الكفاية لكونها تندرج تحت مفهوم قوله تبارك وتعالى: " وأعدّوا .. " وإلّا .. فالمسؤولية جسيمة وخطيرة أمام ربّ العالمين :

ومما يؤكد شمولية العلم في الإسلام :

أن كل الآيات القرآنية التي تحض على التأمل والتفكير في خلق السموات والأرض هي في الحقيقة حض على العلم التجريبي في كل صوره وأنواعه ، وذلك أن المسلم حينما يتأمل في أسرار الطبيعة ، ويتعمق في خفايا الكون ، ويبحث عن نواميس الحياة .. فإنه يزداد إيمانا بعظمة هذا الخالق العظيم ، وبإبداعه الرائع وبقدرته الفائقة ..

ومن هنا ندرك قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، لأن العالم كلما ازداد علماً بخفايا الكون ، وأسرار الطبيعة .. ازداد إيماناً بالله ، وخشية منه .

ومما يؤكد شمولية العلم في الإسلام :

القاعدة الأصولية التي تقول : " مالا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب " . فإذا كان الواجب الحربي مثلاً يتطلب من المسلمين في الماضي أن يكون عندهم خيل ، ودروع ، وسيوف ، ورماح .. وغيرها من المعدات الجهادية التي تتناسب مع روح العصر ومتطلبات الزمن .. فإن الواجب عليهم في عصرنا اليوم أن يعدّوا من الصواريخ ، والقنابل ، والطائرات ، والمدافع ، بما يتناسب مع حروب العصر ، ومتطلبات الجهاد ليقابلوا القوة بالقوة ، والإعداد بالإعداد .. وإلا .. فإنهم آثمون لأنهم لم يحققوا هذا الواجب ، ولم ينهضوا بهذا الإعداد !! .

من هنا نعلم أن مبدأ العلم في الإسلام هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة خلال العصور ، وعبر

التاريخ .

ب - وينطوي على مبدأ التفكير في ملكوت الله :

ما أكثر الآيات التي تحض على التأمل والتفكير في خلق السموات والأرض ، وما أروعها حينما تهيب بالعقل الإنساني أن يتدبر ويتفهم حتى يصل إلى المعرفة الصحيحة، ويتراءى له الحق الواضح المبين . .

من هذه الآيات :

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض آياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ [الآية - ١٦٤] .

وقال في سورة آل عمران : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آياتٍ لأولي الألباب ﴾ [الآية ١٩٠] .

وقال في سورة يونس : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تغني الآيات والنذر عن قومٍ لا يؤمنون ﴾ [الآية : ١٠١] .

وقال في سورة الروم : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى وإن كثيراً من الناس بقاء رهم لكافرون ﴾ [الآية : ٨] .

وقال في سورة الروم : ﴿ ومن آياته يُريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ [الآية : ٢٤]

وقال في سورة الغاشية : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ؟ * فذكر إنما أنت مذكر . . . ﴾

[الآيات : ١٧ - ٢١]

فهذه الآيات القرآنية وغيرها فضلاً عن أنها تلفت نظر الإنسان لوجود الإله الواحد المعبود، وتحرك قلبه ومشاعره وأحاسيسه بالإيمان بواجب الوجود . . فإنها في الوقت نفسه تفتح أمام العقل الإنساني آفاقاً جديدة من المعرفة الكونية ، وعلم الأحياء ، وسر وجود الحياة . . ليزداد المؤمن إيماناً بعظمة الخالق المبدع ، ويترسخ قلبه يقيناً بقدرة الخالق الفاتحة ، وصدق الله العظيم القائل في سورة فصلت:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ . [الآية : ٢٣]

من هنا نعلم أن مبدأ التفكير في ملكوت الله هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة، وإشعاع قوي لاستجلاء المعرفة . . . على مرّ السنين وكرّ الأعوام ، حتى يوم البعث والنشور .

ح - وينطوي على مبدأ تكريم الله للإنسان :

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ . [الآية : ٧٠]

فما مجال هذا التكريم والتفضيل ؟

- كرمه الله سبحانه بالعقل والحواس :

لأنهما الطريقان إلى المعرفة ، واستجلاء الحقيقة ، واكتشاف عظمة الله في الكون . . قال تعالى في سورة النحل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ . [الآية : ٧٨]

ومن مقتضيات هذا التكريم أن جعل الله الإنسان مسؤولاً عن عقله وحواسه إذا هو لم يستعملهما في طاعة الله وخدمة عباده . . ، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ . [الآية : ٣٦]

بل اعتبر المعطل لعقله وحواسه كالأنعام بل هو أضلّ . . قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ولقد
ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون
بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ . [الآية : ١٧٩]

– وكرمه الله سبحانه بالاستخلاف في الأرض :

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾
[من الآية : ٣٠]

وقال في سورة الأنعام : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ . . . [من الآية : ١٦٥]
وما دام الإنسان خليفة الله في الأرض فهو إذن سيدها ، والقائم عليها والمالك لزماتها ،
والمستخرج لدفائنها ، والمستجلب لكل سرّ فيها . . . ولايتأتى ذلك إلا أن يسلك سبيل العلم
والمعرفة . . . ليسخر هذه القوى الطبيعية ، والنواميس الكونية ، لخدمة الحضارة وكرامة الإنسان !! .

– وكرمه الله سبحانه بتسخير الكون له ويجعل الطبيعة كلها تحت تصرفه :

قال تعالى في سورة الجاثية : ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من
فضله ولعلكم تشكرون ﴾ * وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآياتٍ لقوم
يتفكرون ﴾ . [الآيتان ١٢ : ١٣]

وما دام هذا الكون مسخراً للإنسان فعليه أن يستخدمه لمصلحة الحضارة ، وخدمة الإنسانية ،
وكرامة الجنس البشري !! .

ومن هنا نعلم أن مبدأ تكريم الله للإنسان هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة ، وإشعاع قوي
لاستجلاء الحقائق العلمية على مدى التاريخ ، وكرّ الأعوام

د - وينطوي على مبدأ المساواة الإنسانية :

يقول الله تعالى في أول سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ .

ويقول في سورة الحجرات : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [من الآية : ٣١]

ويقول عليه الصلاة والسلام في خطبته الجامعة في حجة الوداع : " كلكم لآدم وادم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح " . كل هذه النصوص تؤكد أن كل من ينضوي تحت راية الإسلام ساهم في بناء الحضارة الإنسانية بغض النظر عن أجناسهم المختلفة ، وألوانهم المتباينة ، ولغاتهم المتعددة . . ويحدثنا التاريخ أن العنصر غير العربي في الدولة الإسلامية كانوا يتبوؤن أسمى المراتب ، وينالون أعلى المناصب . . بل كانوا من أشهر الرجال في النبوغ العلمي والتفوق الحضاري . . كأمثال أبي حنيفة ، وسيبويه ، والبيروني والخوارزمي ، والرازي ، وابن سينا . . ومئات غيرهم ممن حملوا أمانة الفقه ، والطب والرياضيات ، والفلسفة ، والتاريخ ، والفلك ، والجغرافيا ، وسائر العلوم ، بل ساهم أولئك في بناء الحضارة الإنسانية أيما إسهام ؟ وما زال التاريخ يتغنى بعظمة نبوغهم ، وحميد آثارهم !! .

والليكم بعض مآثر هؤلاء :

- لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه نافعاً وقد قدم للحج ، وكان قد استعمله على مكة فقال : من استعملت على أهل الوادي ؟ فقال : " عبد الرحمن بن أبزي " مولى من موالينا ، فسأله عن حاله ، فقال : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفقه والفرائض . . فسُرَّ عمر رضي الله عنه وقال : أما إن نبيكم قال إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع آخرين " .

- " وكان عطاء بن أبي رباح " مولى لبني فهر ، تولى إفتاء مكة ، وكان ينادي منادي الخليفة الأموي في موسم الحج : " لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح " ، وكان على دمامته وسواد شكله وعنصره غير العربي يتصدّر أرفع مركز شعبي بين الناس .

- وكان " طاووس بن كيسان " -وهو فارسي - لأيبالي أن يوبخ الخلفاء في مجال التذكير والإرشاد ، وكانوا يتلمسون رضاه ، وكانت قلوبهم تفيض هيبةً له وإجلالاً ، وسارت جنازته يوم مات فوق رؤوس عربية مسلمة مطاطنة تفوق العدّ والحصر .

- وكان " واصل بن عطاء " المعتزلي ، مولى لبني ضبّة ، وكان صدرا في الأدب واللغة والعلوم . . لم ينازعه الصدارة فيها منازع ولم ينكر فضله ونبوغه أي إنسان . .

- والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وأعظم من أن تستقصى ، ولا يستطيع أحد أن يتجاهل ماتدين به الحضارة الإسلامية للعصر السلجوقي ولا أن ينكر ما قدمته للحضارة الإسلامية نهضة التيموريين في أواسط آسيا .

ولا يستطيع أحد أن يتغاضى الدور الهائل الذي لعبه الأتراك العثمانيون في انبعاث الحضارة الإسلامية وازدهارها . . فإذا ذكرنا أن هؤلاء جميعاً ليسوا بعرب عرفنا جيداً أن كل من آمن بهذا الإسلام عقيدة وعبادة وتشريعاً . . ساهم في بناء الحضارة الإنسانية ، وشارك في إقامه . . مجد المسلمين عبر العصور . .

من هنا نعلم أن مبدأ المساواة الإنسانية في الإسلام هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة الإنسانية وأداة قوية في انبعاثها وازدهارها على مدى التاريخ . . !

هـ - وينطوي على مبدأ الانفتاح والتعارف :

- يقول الله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ... ﴾ . [من الآية : ١٣]

ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي والعسكري : " الحكمة ضالة كل مؤمن فإذا وجدها فهو أحقّ بها " .

ومما يؤكد هذا التعارف والانفتاح الإحسان والبر والقسط للذين لم يقاتلونا فى ديننا ، ولم يخرجونا من ديارنا ، ولم يأتروا على بلادنا .. قال تعالى في سورة الممتحنة : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .. ﴾ [الممتحنة : ٨] .

- ومن المؤيدات لهذا التعارف والانفتاح المحافظة على العهود والمواثيق ولو كان أهل العهد مشركين : قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة : ٤] .

ومن المؤيدات كذلك إجارة غير المسلم ولو كان مشركاً حتى يعرف الحق ، ويدخل في أمان المسلمين .. قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾ [التوبة : ٦]

- جواز أكل ذبائح أهل الكتاب ، وجواز نكاح نسائهم ، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتوهن أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان .. ﴾ [المائدة : ٥] .

فبناءً على هذه النصوص التي سبق ذكرها :

انفتح المسلمون على غيرهم ، وتعارفوا على شعوب كثيرة من غير ملتهم . . وكان من نتيجة هذا الانفتاح والتعارف أن استفادوا من مدنيات متعدّدة ، وحضارات متنوعة . . كحضارة الإغريق ، وحضارة اليونان ، وحضارة الرومان ، وحضارة الفرس ، وحضارة الهند . . وغيرها من الحضارات التي عاصروها وأخذوا عنها ، فتكونت لدى المسلمين خبرات واسعة في شتى المجالات الصناعية ، و التجارية ، والزراعية ، والعمرائية ، والعلمية ، والفنية . . فصهروها في بوتقة الإسلام ، فجاءت الحضارة فيما بعد مطبوعة بطابعه ، ومهورة بجائته .

فإذا كان الإسلام ينطوي على مبدأ العلم الشامل . . .

وينطوي على مبدأ التفكير في ملكوت الله . .

وينطوي على مبدأ تكريم الإنسان . . .

وينطوي على مبدأ المساواة الإنسانية . .

وينطوي على مبدأ الانفتاح والتعارف . . .

فإذا كان الإسلام ينطوي على هذه المبادئ كلها فأحرّ بالمسلمين الواعين المتفهمين لمبادئ دينهم ، والعاملين على مقتضى شريعتهم . . أن يحملوا إلى الإنسانية مشعل العلم والمعرفة ، وأن يرفعوا في سماء البشرية ألوية المدنية والحضارة ، وأن يكونوا بحق أساتذة الدنيا ، وهداة الأمم ، ومنارات متألّئة في بحار الظلمات . .

ولما فهم آباؤنا الأولون من الرعيل الأول الإسلام هذا الفهم ، وأخذوا بهائيك المبادئ ، وطبقوا على أنفسهم تلك التعاليم . . كانوا بحق عباقرة الدنيا ، وعظماء التاريخ وأئمة الفكر ، وأساتذة العالم ، وحاملي ألوية الحضارة . . في فترات طويلة من التاريخ . . بل كان الشرق والغرب يرتشف من معين علومهم ، وينهل من سلسبيل معارفهم ، ويستهدي من نور مدنيّتهم وحضارتهم . .

وسوف تجد - أخي القارئ - في بحث " الشهادات .. " كيف شهد المنصفون من مستشرقين ومستغربين ، وعلماء اجتماع ، وفلاسفة مختصين .. بعظمة الحضارة الإسلامية في الطب ، والكيمياء ، والطبيعات ، والرياضيات ، والفلسفة ، والاجتماع ، والفلك ، والتاريخ .. ؟ وكيف أثرت هذه الحضارة بنهضة الدول الغربية والشرقية في العصر الحديث ؟

وسوف تجد أخي القارئ - أيضاً في بحث " معابر الحضارة الإسلامية .. " كيف انتقلت الحضارة الإسلامية إلى الشرق والغرب ؟ وكيف استهدت الإنسانية بحضارة الإسلام الخالدة ؟ !!
وسوف تجد - أخي القارئ - كذلك في بحث " جوانب الحضارة الإسلامية وأثرها في بناء الأمم " .

كيف أن الحضارة في الإسلام كانت شاملة ومتنوعة ؟ وكيف كان لها الأثر الأكبر في رقي الشعوب ، وبناء الأمم ؟ !! .

ألا فليفهم شباب الإسلام حقيقة هذا الإسلام ، وعظمة هذا الدين !! .

الفصل الثاني :

جَوَانِبُ الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

وأثرها في بناء الأمم

كما أَلَحْنَا قَبْلَ قَلِيلٍ أَنَّ الحَضَارَةَ فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ شَامِلَةً وَمُتَنَوِّعَةً ، وَكَانَ لَهَا الأَثَرُ الأَكْبَرُ فِي رَقِيِّ الأُمَمِ ، وَبِنَاءِ الشُّعُوبِ .

وَهَا نَحْنُ أَوَّلَاءُ سَنُبْرِزُ فِي هَذَا الفَصْلِ أَهَمَّ جَوَانِبِ الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الخَالِدَةِ ، لِيُوقِنَ عِشَاقُ الحَقِيقَةِ أَنَّ الإِسْلَامَ دِينُ النُّهْضَةِ الشَّامِلَةِ ، وَالحَضَارَةُ المُتَنَوِّعَةِ ، وَالمَدِينَةُ المُتَجَدِّدَةُ . .
وَيُمْكِنُ أَنْ نَحْصِرَ هَذِهِ الجَوَانِبَ المُهِمَّةَ فِي المِيَادِينِ الثَّلَاثَةِ التَّالِيَةِ :

أ - مِيَادَانُ العَقِيدَةِ وَالدِّينِ . .

ب - مِيَادَانُ العُلُومِ المُتَنَوِّعَةِ . .

ح - مِيَادَانُ اللُّغَةِ وَالأَدَبِ . .

وَسَنَتَحَدَّثُ إِنْ شَاءَ اللهُ عَنْ كُلِّ صَنَفٍ مِنْ هَذِهِ الأَصْنَافِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ . .

أ - مِيَادَانُ العَقِيدَةِ وَالدِّينِ

إِنْ أَمِيزَ مَا تُمَيِّزُ بِهِ العَقِيدَةُ الإِسْلَامِيَّةُ عَنِ العَقَائِدِ فِي المَلَلِ الأُخْرَى الَّتِي صَاغَتْهَا يَدُ البَشَرِ ، وَحَرَّفَتْهَا أَصَابِعُ الأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ هِيَ :

١ - قَرَرَتِ الإِيمَانَ بِاللَّهِ الوَاحِدِ المُنْزَهِ عَنِ الشُّبُهَةِ وَالشَّرِكِ وَالْوَلَدِ . . .

وَشَعَارُهَا فِي ذَلِكَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا

أَحَدٌ ﴾ [سُورَةُ الإِخْلَاصِ] .

٢ - نفت عقيدة الوساطة بين الخالق والمخلوق ،

وشعارها في ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

٣ - جمعت في طياتها عقيدة كل الديانات السابقة ،

وشعارها في ذلك قوله سبحانه في سورة الشورى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ﴾ [الشورى : ١٣] .

٤ - قررت أن الكتب السماوية يصدق بعضها بعضاً ، والمتأخر يتم منها المتقدم وينسخه .

أما أنها تصدق لما بين يديها من الكتب السالفة :

فلقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [المائدة : ٤٨] .

أما أنها ناسخة لما نزل قبلها من الشرائع فلقوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نظمس وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾ [النساء : ٤٧] .

٥ - قررت أن الأنبياء والعلماء والربانيين ليس لهم من الأمر شيء ولا يملكون لمخلوق ضرراً ، ولا هداية ولا مغفرة . . . وإنما مرد ذلك إلى الله سبحانه وحده .

والأصل في ذلك الآيات البينات :

- قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

- وقال في سورة القصص : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾

[القصص : ٥٦] .

- وقال في سورة التوبة : ﴿ استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة : ٨٠] .

- وقال في سورة التوبة ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ [التوبة : ٥١] .

٦ - قررت مبدأ المسؤولية الفردية ، واعتبرت كل إنسان مسئولا عن عمله ، ونفت أن تتحمل نفس مسؤولية نفس أخرى بعد استكمال تكوينها وتربيتها .

وشعارها في ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الإسراء : ١٥] .

وقوله سبحانه في سورة الطور : ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ [الطور : ٢١] .

وفي سورة المدثر : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ [المدثر : ٣٨] .

٧ - قررت حق الحاكمية والتشريع لله وحده ، فلا يملك أحد من البشر أن يحرم ما أحل الله أو أن يحل ما حرم الله . . وشعارها في ذلك قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [يوسف : ٤٠] .

وقوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول . . ﴾ [النساء : ٢٩] .

وقوله عز من قائل في سورة المائدة : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقد ندد القرآن بأهل الشرائع السابقة الذين اتخذوا الأحزاب والرهبان أربابا من دون الله .
ولقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم هذا المعنى من الربوبية حين سأله إنهم ما عبدوهم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " إنهم إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه ، فهذه عبادتهم " !! . .

فانطلاقاً مما قرره الشريعة الإسلامية من مبادئ التوحيد ، وحقائق العقيدة . . دخل الناس في الإسلام زرافاتٍ ووحداً ، واعتنق الكثير منهم الدين الجديد عن طوعية واختيار . . وقامت حركات الإصلاح الدينية في أوروبا منذ القرن السابع الميلادي حتى عصر النهضة الحديثة .

فوجد من المسيحيين من ينكر عبادة الصور .

ووجد منهم من ينكر الوساطة بين الخالق والمخلوق .

ووجد منهم من ينكر أن المسيح هو ابن الله ، أو أنه ثالث ثلاثة . . .

ويؤكد كثير من الباحثين " أن " لوثر " في حركته الإصلاحية ضد رجال الكنيسة كان متأثراً بما قرأه للفلاسفة العرب ، والعلماء المسلمين من آراء في الدين ، والعقيدة ، والوحي . . وكانت الجامعات الأوروبية في عصره لاتزال تعتمد على كتب الفلاسفة المسلمين التي ترجمت منذ عهد بعيد إلى اللاتينية ، ونستطيع أن نؤكد أن حركة الفصل بين الدين والدولة التي أعلنت في الثورة الفرنسية كانت وليدة الحركة الفكرية العنيفة التي سادت أوروبا ثلاثة قرون أو أكثر ، وكان لحضارتنا فضل في إيقاد جذوتها عن طريق الحروب الصليبية والأندلس . . " (١) .

ومن المهازل التي يذكرها التاريخ بزفات من الأسى واللوعة أن يعلن الباباوات والقساوسة لأنفسهم أنهم فوق البشر ، وأنهم يحكمون الجميع ولا يحكمهم أحد ، وأن لهم حق التوبة والمغفرة لا يسألون عما يفعلون !!! .

جاء في " معالم تاريخ العصور الوسطى " ١٤٨ ما يلي :

* أعلن البابا " غريغورس " السابع سنة ١٠٧٣ م : " أن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كله تستمد نفوذها من الله مباشرة ، وتمتد هي ملوك الأرض وأمراءها بالنفوذ ، وأن البابا له مركز

(١) من كتاب " روائع حضارتنا " للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ص : ٣٨ .

فَذَ في العالم ، فهو الذي يُولِّي الأساقفة ويخلعهم ، وله الحق في خلع الأباطرة لأنه سيدهم الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون " .

* وفي القرن الثالث عشر أعلن البابا " أرْنِسْتُ الثالث " سنة ١١٩٨ م : " إن الخادم الذي أقامه الله على شعبه إنما هو نائب المسيح ، وخليفة بطرس ، فهو قائم بين الله وبين عباده دون الربِّ وفوق البشر ، وهو يحكم الجميع ولكن لا يحكمه أحد " .

* وأقصى من هذا أن يعلن " البابا " حرمان إمبراطور ، فيضطر أحياناً إلى الوقوف ببابه ثلاثة أيام حافي القدمين ، عاري الرأس بين الثلوج والأمطار ، حتى يأذن له البابا ، ويغفر له ذنوبه ، كما فعل الإمبراطور " هنري الرابع " حين حرمه البابا عام ١١١٧ م .

* وفي عهد البابا " أنسنت الثالث " أعلن غضبه على الملك " جون " ملك إنكلترا ، ثم أنزل نقمته على إنجلترا كلها ، وأعلن عليها حرباً صليبية ، وحرّض ملك فرنسا " فيليب أغسطس " على مهاجمتها وضماها إليه ، فاضطر عندئذ ملك إنجلترا إلى طلب الغفران من البابا فغفر له ، وقدم له ملك إنجلترا " هدية " على أن يكون تابعا للبابا ، وأقسم له يمين الولاء على ذلك . . .

هذا هو أبرز ما كان يتسم به رجال الدين في القرون الوسطى ، فكان من الطبيعي أن يثور على هذه المعتقدات الفاسدة رجال . وأن ينتقد هذه الأوضاع مصلحون !! . لم تكن الديانة المسيحية في الأصل هي التي توقد نار هذا البركان ، وتنتشر على الناس هذه المعتقدات الفاسدة . .

ولكنهم رجال الدين بأعمالهم وآرائهم ، وانحرافهم عن الأصول التي جاء بها المسيح عليه السلام ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه . . هو الذي خلق هذه البلبلة ، وأثار هذه المشكلات في العقيدة والتسلط الكنسي ، ومنازعة الله عز وجل في المشيئة والغفران وعدم السؤال عما يفعل !! . .

ففي القرن الثامن عشر قال " فولتير " " إن الأعمى هو الذي يؤثر على الدين الطبيعي الذي يمتاز بالبساطة ، ويشارك في الإيمان به جميع الناس . . عقيدة متناقضة سفاكة للدماء ، ينتصر لها الجلادون ،

وتحيط بها عصابة من الأشراس الوصوليين . . عقيدة لا يدعن لها إلا الذين أفادوا منها سطوة وثناءً . .
" (١)

" وهكذا ابتدأت الثورة في القرن السادس عشر ضد طغيان الكنيسة ورجالها ، ثم انتهى في القرن الثامن عشر . . إلى أن تكون ثورة ضد الديانة المسيحية وعقائدها ، وهو موقف لايسأل عنه " لوثر " ، ولا " جاليلو " ، ولا " فولتير " . . وأمثالهم من المصلحين والعلماء والأدباء ، وإنما يسأل عنه " أوغسطين " ، و " غريغورس " ، و " اينست " . . وأمثالهم من القديسين والأحبار والرهبان والآباء . .
" (٢)

" وفي القرن السادس عشر قال " لوثر " في بيان وجهه إلى النبلاء الألمان : أليس من المزري أن يطلب البابا لنفسه حق التصرف في الإمبراطورية ؟ وإلا فهل نسي قول سيده " يعني المسيح عليه السلام " : إن ملوك الأرض هم الذين يسودونها ؟ ولكن شأن البابا ليس كشأن الملوك ، فلينزل إذن قسيس روما عن حقوقه المزعومة في مملكته نابولي وصقلية ، فإن حقه هناك لا يزيد عن حقي أنا " لوثر " وليؤدِّ البابا فريضة الصلاة وليذر الأمراء يحكمون الممالك . . " (٣)

ونستطيع أن نؤكد أن موقف " فولتير " و " لوثر " و " جاليلو " . . وغيرهم من دعاة الإصلاح ضد معتقدات الكنيسة ، وضد تسلط رجال الدين . . وأن حركة الفصل بين الدين والدولة التي أعلنت في الثورة الفرنسية كانت وليدة الحركات الفكرية العنيفة التي سادت أوروبة ثلاثة قرون وأكثر . . وكان لحضارة الإسلام الفكرية الفضل الأكبر في إيقاد جذوتها ، واندلاع شرارتها ، وامتداد سلطانها . . عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية . .

(١) من كتاب " قصة النزاع بين الدين والفلسفة " للدكتور توفيق الطويل ص : ١٨٢ .
(٢) من كتاب " الدين والدولة في الإسلام " ص : ٢٨ للدكتور السباعي رحمه الله تعالى .
(٣) من كتاب " علم الدولة " لأحمد وفيق ص : ١ - ٣٣٨ .

ب - ميدان العلوم المتنوعة

كانت أوروبة في القرون الوسطى تغطّ في نوم عميق ، وكان الجهل يجثم في أرجائها ، ولم تعرف عن الفلسفة ، والطب ، والرياضيات ، والكيمياء ، والفلك . . إلا النذر القليل .

ولما دوى في مدارس إشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة . . وغيرها صوت علمائنا وفلاسفتنا صحت أوروبة من غفوتها ، وأقبلوا نحو الصوت ليسمعوا من الأساتذة المسلمين حقائق العلم والمعرفة ومبادئ المدنية والحضارة .

ففي الوقت الذي كان علماء الإسلام يتحدثون في حلقاتهم العلمية عن كروية الأرض ودورانها ، والأجرام السماوية وحركاتها ، والجاذبية الأرضية وقوانينها . . . كانت عقول الأوربيين تمتلئ بالخرافات والأساطير ، وتعشش فيها الجهالات والأوهام! . . !

بل كانت الكنيسة وقتئذ تحكم بالإعدام ، وأحياناً بالحرق في الساحات العامة كل من يخرج على تعاليم الكنيسة ، أو يأتي بآراء علمية تخالف - في زعمهم - تعاليم الإنجيل! .

ولحاكم التفتيش في أوروبة تاريخ حافل بالقسوة والغلظة والوحشية في مطاردة رجال الفكر ، والفلسفة ، والعلم ، والإصلاح . . في آرائهم . .

" ولقد أحرقت الكنيسة من أحرقت منهم وهم أحياء كأمثال " جون هس " سنة ١٤١٥ م ، و" جيروم البراجي " و" جان دارك " و" برونو " سنة ١٥٩٨ . . ومئات غيرهم ، وسجنت منهم من سجنت كأمثال " أبيلارد " و" روجر بيكون " و" جاليلو " ومئات أمثالهم قضى منهم من قضى في سجنه ، وأحرق منهم من أحرق بعد موته ، وشرّد منهم من شرّد عن أرضه ووطنه . . وقد قدّر بعض المؤرخين عدد ضحايا التفتيش - منذ إنشائه في القرن الثالث عشر حتى إلغائه في نهاية القرن الثامن عشر - قدّر بعض المؤرخين العدد بما لا يقل عن تسعة ملايين ^(١) من البشر . ولم تكف الكنيسة بمطاردة رجال الفكر والعلم والإصلاح . . في أجسامهم وأرزاقهم ، بل طاردتهم في آرائهم وكتبهم فصادرت

(١) ومعظمهم من المسلمين الذين أجبروا على التنصر ، والبقية يهود ، وأرثوذكس وبروتستانت ، وعلماء ومصلحون ..

المؤلفات ، وأحرقت الكتب . . حتى لا يطلع الناس على ما فيها من آراء تحرمها الكنيسة كالقول بدوران الأرض ، والقول بتحريم الصور ، وحرية الإنسان في فهم الكتاب المقدس دون وساطة القس " (١)

فإذا كانت هذه هي حال أوروبا في اضطهاد رواد الفكر والعلم والإصلاح . . في القرون الوسطى ، فمن الحريّ أن تعرف - أخي القارئ - انطلاقة الحضارة العلمية ، والفلسفة الفكرية . . التي كانت ممثلة في علماء الإسلام الأفذاذ ، ومفكرينا النوايع ، والتي كانت سبباً في نهضة أوروبا الحديثة بشكل خاص ، ونهضة القرن العشرين بشكل عام .

واليك - أخي القارئ - عظمة الحضارة العلمية التي خلفها الجدد النوايع الأفذاذ في ميدان الطب والفلسفة والعلوم المتنوعة ، التي كانت سبباً في النهضة في العصر الحديث الحضاري . .

واليكم هذه العلوم المتنوعة مصنفة ومرتبة :

أ - في الفلسفة :

يقول الدكتور الحججي في كتابه " الحضارة الإسلامية في الأندلس " ص : ٤١ - ٤٢ : " لدينا في الفلسفة أسماء لامعة ، وإنتاج غزير ، أمثال :

- الفيلسوف " محمد بن باجة " المتوفى ٥٣٣ هـ ١١٣٨ م .

- والفيلسوف " ابن رشد " المتوفى ٥٩٥ هـ ١١٩٨ م وهو أعظم فيلسوف أندلسي ترك أثراً واضحاً في الغرب .

- والفيلسوف " ابن طفيل " ، صاحب قصة " حيّ بن يقظان " التي ترجمت إلى اللاتينية سنة ١٦٧١ م . وإلى الهولندية سنة ١٦٧١ م ، ونقلت إلى أكثر اللغات الأوروبية . ولم يكن القديس الفرنسي " توما الإكويني " المتوفى سنة ١٢٧٤ م ، الذي يعتبر من أكبر فلاسفة اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى إلا عالمة في آرائه على فلسفة " ابن رشد " ، ولقد ترجمت كتب " ابن رشد " إلى اللاتينية ،

(١) من كتاب " الدين والدولة في الإسلام " للدكتور السباعي رحمه الله تعالى .

وبقيت فلسفته مهيمنة على الفكر الفلسفي الأوروبي من أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، حتى إن مجمع باريس اللاهوتي أصدر قرار الحرمان في سنة ١٢٦٩ م لكل من يردّد كلام " ابن رشد " في النفس والإنسان . . وغيرها من المسائل الفلسفية " .

- والفيلسوف " ابن سينا " الذي ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب في الفلسفة والطب . . قد أداه مجته في الفلسفة إلى اعتبار العقل هادي النفوس الإنسانية إلى الخير ، ومن أشهر كتبه كتاب " الشفاء " ، ويعتبر موسوعة فلسفية كبرى حوت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات وإلهيات . . وقد ترجم إلى اللاتينية ، ومنها إلى بعض اللغات الأوروبية^(١) .

ب - في التاريخ :

من الأمور المسلّم بها لدى علماء الاجتماع والتاريخ أن المسلمين جعلوا التاريخ علماً قائماً بذاته له فنه وأصوله .

يقول " قدري طوقان " في كتابه " العلوم عند العرب " : " ويعتبر " ابن خلدون " من أبرز مَنْ كتب في " علم التاريخ " ومن المجدّدين فيه ، ولقد ترجمت مقدمته إلى مختلف اللغات عدة مرات " .
ويقول " عبد الواحد وافي " في كتابه " دراسة مقدمة ابن خلدون " :
" ومن مقدمته استمدّ " أوغست كنت " العالم الفرنسي كثيراً من آرائه ونظرياته " .

ومن أشهر المؤرخين المعروفين في التاريخ : ابن حيان القرطبي ، والرازي ، وابن الخطيب ، وابن الأثير ، والطبري . . وكثير غيرهم .

وكان " ابن حيان " - كما يقول وافي - من أكبر علماء التاريخ لافي التأليف فقط ، ولكن أيضاً في طريقته النقدية التحليلية ، فله طريقته الخاصة في العرض ، وكان أحياناً يذكر التاريخ الهجري للحادثة ، والمقابل الإفرنجي ، ويحدّد ساعات الحادثة ، وهو ما قد يقلّ وجوده لدى المؤرخين في ذلك الوقت ،

(١) من كتاب " الإنسان العربي والحضارة " ص : ٥١٥ لأنور الرفاعي .

فكان دقيقاً في نقده ، يتحدث عن الأشخاص ذاكراً ما لهم وما عليهم ، معللاً الحوادث مبيّناً أصولها القريبة والبعيدة . .

واتبع المؤرخون المسلمون في تدوين تواريخهم طريقتين :

أ - الحوليات :

وهي ذكر الحوادث سنة بعد سنة ، فنجد المؤرخ التاريخي مثلاً يقول : وفي سنة كذا حدث كذا من الحوادث حتى إذا انتهى من هذه السنة انتقل إلى التي بعدها .

ب - التاريخ المتسلسل :

والطريقة : يبدأ المؤرخ بالحادثة فيسردها من أولها إلى آخرها . أو يبدأ بتاريخ دولة أو عهد ، فيعرضه بتواريخه كوحدة مستقلة . .

ج - في الجغرافيا :

يقول الدكتور الحججي في كتابه " الحضارة الإسلامية في الأندلس " ص : ٤٢ :

" إن باع المسلمين في هذا الميدان معروف جداً ، وإن المسلمين هم الأوائل الذين ارتادوا الأماكن والبحار ، وفتحوا الطريق للعالم فيها بعد أن يقوموا برحلات الاستكشاف ، وما اخترعوه من الوسائل لخدمة هذا العلم برأً ومجراً تحدث عنه كثير ، ويذكر من هؤلاء الجغرافيين ذوي الرحلات العالمية :

الرازي ، وأبو عبيد البكري ، والعذري ، والإدريسي ، وابن جبير ، وابن بطوطة . . .

وغيرهم .

إن بعض التقارير التي كتبها الرحالة الجغرافيون المسلمون تعتبر حتى الآن المصادر الأولى ، وربما الوحيدة عن تلك الأقطار ، وتلك الفترة . .

ولعل الجغرافيين المسلمين أول من تحدثوا عن شمال أوروبا وشرقها . . ولدينا نص جغرافي لأبي

عُبَيْد البكري ، يعتبر أقدم النصوص لشاهد عيان زار مناطق الشمال الأوروبية في القرن العاشر الميلادي .

كما لدينا نص آخر أقدم من هذا عن زيارة بلاد " الدانمرك " أورده لنا " ابن دحية الكلبي " في كتابه " المطرب من أشعار أهل المغرب " .

أما كتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " الذي يحتوي أربعين خريطة أحدها خريطة العالم فقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، واعتمدت عليه أوروبا أكثر من ثلاثة قرون .

" والإدريسي هو الذي صنع كرة فضية ضخمة تمثل الكرة الأرضية وما تزال محفوظة في متاحف برلين حتى اليوم ، وكتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " مترجم إلى معظم لغات أوروبا الحديثة .

وفكرة كروية الأرض قال بها المسلمون وبرهنوا عليها بنفس ما يبرهن به الناس اليوم : وهو أن الشمس لا تطلع على جميع بلاد العالم في وقت واحد ، ولا تغرب عنها في وقت واحد وكذلك بيان مسألة المدّ والجزر . . . " . وقد رسم الجغرافيون المسلمون خرائط لأكثر الأمكنة التي زاروها وعرفوها ، وما يذكره التاريخ بملء الافتخار " أن " المقدسي " زين كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " بخريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها ، ولونها فجعل الطرق المعروفة بلون الحمرة ، والرمال بالصفرة ، والبحار المالحة بالخرصرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبال بالغبرة . . وهي تشبه إلى حد كبير خرائطنا الحديثة من حيث التلوين .

واشتهر من جغرافيتي المسلمين البحار " أحمد بن ماجد " الذي دلّ " فاسكو دي غاما " على طريق الهند ، وما ثبت أن بعض الفتيان المسلمين قاموا برحلات عديدة في المحيط الأطلسي ، وما يرجحه كثير من المؤرخين أنهم وصلوا إلى " أمريكا " ، والمسلمون فضلاً عن أنهم اكتشفوا كروية الأرض ، فإنهم كذلك قاسوا أبعادها في عهد الخليفة " المأمون " لم يسبقهم إليها أحد ، واتخذوا أحد جزر " الباليار " مبدئاً لخطوط الطول ^(١) .

(١) من كتاب " الإنسان العربي والحضارة " لأنور الرفاعي ص ٨٤٤ - ٤٤٩ .

د - في الفلك :

المنصفون من علماء الغرب يشهدون ما لعلماء الإسلام من إنتاج وإبداع في علم الفلك ، فقد ألفوا فيه الكتب والنظريات الكثيرة التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية المتنوعة ، وليست جداول " ألفونسو العاشر " الفلكية في القرن الثالث عشر الميلادي إلا منقولات عن اللغة العربية التي سطرها الأيدي المسلمة وما يذكره التاريخ بملء الإعجاب .

أنه كان للمسلمين المراصد العلمية والفلكية في طليطلة ، وقرطبة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وسمرقند ، وفارس .

واليك ما قاله الغربيون في إبداع المسلمين لهذا العلم :

* يقول " دولامبر " في تاريخ علم الفلك : " إننا إذا أحصينا راصدين أو ثلاثة من الروم رحنا نعدّ كثيرين من العرب في هذا الفنّ ، مما دلّ على بعد غورهم في علم الأفلاك " .

* ويقول " بيكوردين " : " نشأ توسع علم الفلك عند العرب من توسع الرياضيين منهم في الحساب ، لأنهم اخترعوا أساس حساب المثلثات ، وحققوا طول محيط الأرض بما كان لهم من الأدوات ، وأخذوا ارتفاع القطب ، ودور كرة الأرض المحيطة بالبرّ والبحر وحققوا طول البحر المتوسط " .

" وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه ، صوّروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه ، وبرّه وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الأمم ، والمدن . . إلى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية " بطليموس " ، وجغرافية " مارينوس " .

* ويقول " درابر " : " وعرفت العرب حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقدرّوا طول السنة وأدركوا الاعتدالين ، ولاحظوا أموراً بعثت نوراً باهراً على نظام العالم ، واختصّ علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة ، وكانوا السابقين إلى استعمال الساعة الرقاصة كذلك " ^(١) .

(١) ارجع إلى كتاب " الإسلام والحضارة العربية " لمحمد كرد علي : ٢٢٣ - ٢٢٤ .

* ويقول "لوبون" في كتابه "حضارة العرب" .

" وكان للمسلمين المراصد العلمية في طليطلة ، وقرطبة . . " .

* ويقول "طوقان" في كتابه "العلوم عند العرب" :

" كما وضعوا التقاويم كتقويم "سعد بن عريب" أيام حكم "المستنصر" ، كما كانت لهم آلات متعددة للرصد " .

* وذكر "عبد الله عنان" في كتابه "دولة الإسلام" : "إن حكيماً الأندلس أبا القاسم "عباس بن فرناس" أنه كان له في بيته مختبر فيه آلة من صنعه على هيئة السماء يحلّل للنظر فيها أنه يرى النجوم والغيوم والبروق " .

هـ - في الهندسة :

لعلماء الإسلام في ميدان الهندسة والعمران القُدْحُ المَعْلَى، ولا سيما في الزخرفة ، والنقوش ، والزينة ، . . وها هي ذي مساجد المسلمين ، وقصورهم ، ومدارسهم ، ومؤسساتهم . . . أكبر شاهد على ما تقول .

ورحم الله تعالى من قال :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وقد تأثرت أوروبة بالهندسة المعمارية التي تفنّن بها المسلمون ، وأخذت عنهم كثيراً من فنّ الزخرفة ، والنقوش وهندسة البناء . .

* يقول "غوستاف لوبون" في كتابه "حضارة العرب" :

" وقد أخذت أوروبة من العرب تفاصيل في الزينة ، ووجدت على بعض البيع "الكنايس" في فرنسا صور حروف عربية منحوتة في الحجر ، وأكاليل في بعض الحصون تشبه الطراز العربي ، وكثير من الكنايس في فرنسا تأثرت بالهندسة العربية ، ولا سيما في المدن التي لها علائق كثيرة مع الشرق ، وقد جلب الصليبيون من الشرق أصول بيت المؤذن في المنارات ، والمشربيات ، والمعرقات ، والمراصد في

الأبراج . . واستخدمت فرنسا كثيراً من مهندسي الأجانب ، وكان فيهم العرب ، حتى إن كيسة " نوتر دام " المشهورة في عاصمة فرنسا عمل فيها مهندسون من العرب . أما تأثير العرب في هندسة إسبانيا فظاهر ظهور الشمس والقمر . . "

* ويقول " عبد الله عنان " في كتابه " الآثار الأندلسية " : " تعتبر المباني الأندلسية التي لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم ، وهي قمة في الهندسة المعمارية ، فقصر الزهراء مثلاً لم يبق منه أثر ، وأعيد بناء وترميم بعضه نتيجة للتنقيبات الحديثة " .

* ويقول " المقرئ " في " فح الطيب " : " إن مدينة الزهراء في الأندلس التي وصفها المؤرخون بالروعة والدقة وال ضخامة أشرف على بنائها المهندس " مسلمة بن عبد الله العريف " ، وكانت الزهراء مبلطة بقطع الرخام المنقوش بمهارة على ألف شكل ، وهي مدينة تقوم على سفح جبل العروس على بعد خمسة أميال شمالي غربي قرطبة ، وإن المسلمين في الأندلس استطاعوا جلب المياه من المناطق البعيدة الجبلية إلى المدن في قنوات الرصاص في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي . . "

* ويقول " أنور الرفاعي " في كتابه " الإنسان العربي والحضارة " ص ٤٩٦ : " وفضل العرب ^(١) في علم الهندسة اهتمامهم بها في وقت أهملها الأوروبيون ، وبقيت الترجمات العربية هي المعتمدة في أوروبا وعنهما يأخذون الهندسة اليونانية حتى عام ١٥٨٣ م ، وحينما عثروا على نسخة مكتوبة باليونانية من كتاب " إقليدس " فترجموها فوجدوها طبق الأصل العربي " .

ويستطرد " الرفاعي " قائلاً : " ولم يقف العرب عند دراسة هندسة " إقليدس " بل ألفوا فيها تأليف جديدة ، فابن الهيثم ألف كتاباً " على نسق الأصول " . . و " محمد البغدادي " ألف رسالة تشمل على اثنين وعشرين قضية هندسية . . وكتب غيرهما في المساحات ، والحجوم ، وتحليل المسائل الهندسية ، واستخراج المسائل الحسابية بطريقتي التحليل الهندسي ، والتقدير العددي ، وفي التحليل

(١) كان الأولى أن يقول : " وفضل المسلمين " بدلاً من فضل العرب ، لأن الإسلام هو الذي جعلهم أبناء حضارة ذات أهمية عبر التاريخ وخلال العصور حتى عصر النهضة الحديثة .

والتركيب الهندسين ، وفي تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية ، ورسم المضلعات المنتظمة وربطها بمعدلات جبرية في محيط الدائرة ، وبينوا كيفية إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ، واشتغلوا في علم تسطيح الكرة ، والذي يتناول في الأكثر رسم الخرائط الجغرافية لأنها تنقل ما هو مرسوم على كرة إلى سطح مستو وبالعكس . . " .

ويقول أيضاً في ص : ٤٩٧ : " . . . واشتغل العرب بالمثلثات المستوية ، والمثلثات الكروية ، وأثبتوا فيها إثباتات جديدة ، وحلوا مسائل على المثلثات الكروية القائمة الزاوية ، واستعملوا المماسات والقواطع ، ونظائرهما في قياس الزوايا والمثلثات ، ووصفوا الجداول التي ذكرت أنها مهدت لاكتشاف قانون " اللوغاريتمات " واخترع العرب حساب الأقواس التي تسهل التقويم ، وترجح من استخراج الجذور المربعة . . " .

و - في الرياضيات :

من المسلم به لدى علماء هذا الفن أن علماء الإسلام هم الذين نبغوا في علم الرياضيات ، وهم الذين وضعوا للعالم الإنساني مبادئها وأصولها . .

واليك - أخي القارئ - شهادة المستشرقين في إبداع علماء الإسلام في فن الرياضيات :

* يقول المستشرق " سيديو " : " والعرب حين زاولوا علم الهيئة عنوا عناية خاصة بالعلوم الرياضية كلها ، فكان لهم فيها القدر المعلى ، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة " .

وينقل الدكتور السباعي رحمه الله في كتابه " من روائع حضارتنا " عن المستشرقين هذه الأقوال :

* إن " ليونارد البيزي " ألف حوالي 1200 رسالة في الجبر الذي تعلمه من العرب .

* ويقول " حتى " في كتابه " تاريخ العرب " : " والصفر الذي حلّ مشاكل كثيرة في العمليات الرياضية نقل إلى أوروبا من الأندلس ، ولا يزال " ثفر " أو " زيرو " ، ليست إلا كلمة الصفر العربية حتى معنى هذه الكلمة لغوياً نقلت من العربية بمعنى عديم القيمة ، وقد استخدم " لوثر " هذا اللفظ - أي الصفر - أمام البابا للتعبير عن ضعف الأساقفة بأنهم كالأصفار " .

* ويقول الدكتور " عاشور " في كتابه " المدينة الإسلامية وأثرها على أوروبا " : " والمسلمون هم الذين اخترعوا الكسور العشرية في الحساب ، كما استعملوا الرموز في الرياضيات ، فاستعملوا (س) للمجهول و (ج) للجذر . . . وفي المثلثات أوجدوا المماس ، وحلوا المعادلات المكعبة ، وكل ذلك ترجع إلى لغات أوروبا ، وإن أول رسالة في الرياضيات طبعت في أوروبا سنة ١٤٩٣ م كانت مأخوذة من جداول البتاني " .

* وينقل " أنور الرفاعي " في كتابه " الإنسان العربي والحضارة " ص ٤٩٤ : " عن "كاجوري " : " إن حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب " ، فيقول الرفاعي : " وبذلك يكون العرب قد سبقوا " ديكارت " و " بيكون " في هذه البحوث . . . والعرب هم الذين اكتشفوا النظرية القائلة : بأن مجموع مكعبين لا يكون مكعباً ، ويذهب ظن الكثير من العلماء المعاصرين إلى أن العرب مهدوا لاكتشاف " اللوغاريتمات " بعد أن رأوا " ابن يونس " قد توصل في أبحاثه في المثلثات إلى مثل " اللوغاريتمات " . . . " .

وإن أعظم النواحي في فن الرياضيات هم : الحسن بن الهيثم ، وابن سينا ، والخوارزمي ، وابن البناء . . . وكثير غيرهم .

وكتاب " الخوارزمي " في الرياضيات ترجم إلى اللغات الأوروبية ، وبقي مصدراً لعلم الجبر مدة طويلة ، وفي السنين الأخيرة عُثِرَ على نسخة منه باللغة العربية محفوظة بأكسفورد في مكتبة " بودلين " كانت نسخت في القاهرة بعد " الخوارزمي " بنحو (٥٠٠) عام ، فنشرت عام ١٨٣١ م وعلق عليها الدكتور " علي مصطفى مشرفة " ، والدكتور " محمد موسى أحمد " .

ز - في الفيزياء :

المسلمون الأوائل بحثوا في جميع العلوم الفيزيائية ، ولكن كثيراً من مجوثرهم لم تصل إلينا جميعاً ، لأن أكثرها ترجم إلى اللغات اللاتينية واليونانية ، وأهمل مترجموها أسماء المؤلفين المسلمين ، واتحلوا بدلها أسماء أوروبية جديدة ، ولولا الروح العلمية الموضوعية التي تسود بعض مناصفي العلماء الأوروبيين

المعاصرين من التفتيش عن الحقيقة، وإسناد الأمور إلى أصحابها لطمت كثير من الحقائق التي أبدعها
الجدود الأكارم الأجداد ، ولبقينا نجهل أكثر هذه النظريات التي وضعها علماء الإسلام . .

واليك - أخي القارئ - أهم أبحاث المسلمين في علم الفيزياء :

١ - الضوء :

ويسميه المختصون من علماء الإسلام بعلم البصريات أو علم المناظر ، وقد اهتم به المسلمون منذ
بدء اهتمامهم بالعلوم وبالفلسفة خاصة ، وليس من المبالغة في شيء حين نقول: لولا إبداع المسلمين في
البصريات لما تقدم علماء الفلك والطبيعة تقدمهم العجيب فيما بعد . . .

ولعل أظهر مَنْ تخصص في هذا الباب ، وانفرد فيه ، وظل رائد علم الضوء في القرن السابع عشر
للميلاد هو " ابن الهيثم " وأظهر الكتب التي ألفها " ابن الهيثم " في هذا الفن كتاب " المناظر " ، وهو
كتاب علمي يقوم على المشاهدة ، والتجربة ، والاستنتاج . . وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية ، وبقي
الكتاب الوحيد الذي يقرؤه الباحثون في هذا العلم طوال العصور الوسطى ، وكتاب " المناظر " هذا يقع في
الأصل في سبعة مجلدات ، تبحث في علم المناظر ، وفي تشريح العين ورسمها وأسماء أقسامها ، ولعله
أول من وضع لأقسام العين أسماء عربية ترجمت إلى اللغات الأجنبية لا تزال تعرف بها إلى الآن مثل "
الشبكية " و " القرنية " و " السائل الزجاجي " و " السائل المائي " . . ويبحث الكتاب في وظيفة كل
جزء من أجزاء العين، وفي كيفية النظر إلى الأشياء بالعينين في آن واحد ، وكيف تسير الأشعة من النور
، من الجسم المرئي إلى العينين ، ووقع ذلك على " الشبكية " في محلين متماثلين من العينين ، ثم يبحث
في العدسات ، وقوى تكبيرها . . ويؤيد أقواله بالتجارب التي قام بها بنفسه، ويرسم ما يحتاج منها إلى
رسم ، ويشير إلى كيفية إجراء التجربة ويذكر شروطها ويقارن بين ما يحدث في الطبيعة وما يمكن
مشاهدته في المخبر . .

٢ - بيت الإبرة المغناطيسية :

ثبت تاريخياً أن المسلمين هم أول من عرفوا خاصية الاتجاه ، وأنهم أول من استعملوا الإبرة المغناطيسية لمعرفة الاتجاه .

فالمستشرق " سيدو " ، والعالم " سارتون " وغيرهما ، يؤكدون أن العرب هم الذين عرفوا الإبرة المغناطيسية ، وهم الذين استعملوها ، وأن أوروبة هي التي نقلت عن العرب " بيت الإبرة " ، ثم انتشر هذا العلم في أنحاء المعمورة .

٣ - الرقاص :

وسماه المسلمون " المواريث " ، ومخترعه " ابن يونس المصري " المتوفى عام ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م ، وكان الفلكيون المسلمون يستعملونه لحساب الفترات الزمنية أثناء رصد النجوم وعلى هذا فنسبة اختراع " الرقاص " للعالم الإيطالي " غاليلو " سنة ١٦٤٢ نسبة مجحفة بحق المسلمين ، لأن المسلمين استعملوه قبله بستة قرون ، واستعملوه في الساعات الدقاقة . وقد أشار العالم " سميث " في كتابه " تاريخ الرياضيات " أن " ابن يونس " سبق " غاليلو " في معرفة الرقاص واختراعه . . .^(١) .

ومما يؤكد تفوق المسلمين في هذا الفن شهادة العلماء المختصين :

* يقول الدكتور " سعيد عاشور " في كتابه " المدنية الإسلامية " : " وضع المسلمون النظريات في هذا العلم - أي الفيزياء - ، وليست نظرية الجاذبية " لإسحق نيوتن " إلا ذات أصل إسلامي ، وكذلك تحدثوا عن المغناطيسية ، والعدسات ، والبصريات ، والصوت ، وأدركوا أن الضوء أسرع من الصوت ، وأبدعوا في هذا المجال وتفوقوا فيه . . . " .

* وتروي كتب " تاريخ الحضارات " ما نصه : " أن " روجر بيكون " استقى علومه من جامعات الأندلس ، حتى إن القسم الخامس من كتابه الذي خصصه للبحث في البصريات هو نسخة طبق الأصل عن كتاب " المناظر " لابن الهيثم ، وابن الهيثم - كما سبق ذكره - من أعلام المسلمين في

(١) عن كتاب " الإنسان العربي والحضارة " ص : ٤٨٠ - ٤٨٨ صفحة مع بعض التصرف والاختصار .

الرياضيات والطبيعات ، وهو أول من شرح تركيب العين ، وبيّن أجزاءها بالرسوم ، وسماها بأسماء ما زالت تطلق عليها حتى اليوم كالشبكية ، والقرنية ، والسائل الزجاجي ، والسائل المائي . . .

يقول " سيدو " في كتابه " تاريخ العرب " :

" عرفت العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر ، والمرايا المحرقة بالمتقطع ، وقطعوا أشواطاً كبيرة في الميكانيكات ، ولما بعث " الرشيد " العباسي إلى " شارلمان " الساعة الدقاقة الكبيرة ، تعجّب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتها . . .

ح - في الكيمياء :

مما لا يختلف فيه اثنان أن علماء الإسلام ساهموا في علم الكيمياء مساهمة فعالة ، وكان لهم فيه الباع الأكبر ، ومما يدل على ذلك أن الأسماء العربية التي نقلت إلى الأوروبية بقيت على حالها وهذا مؤشر عظيم من مؤشرات هذا التأثير .

واليك - أخي القارئ - أهم ما أبدعه المسلمون في هذا المضمار :

* يقول " قدري طوقان " في كتابه " العلوم عند العرب " :

" لقد توصل المسلمون إلى كثير من الصناعات بواسطة المواد الكيماوية : في الصبغ ، والدبغ ، وصناعة المعادن ، وتركيب العطور . . .

ويقول " غوستاف لوبون " في كتابه " حضارة العرب " : " إذا كان بعض مركبات البارود " نترات البوتاسيوم " قد اخترعها الصينيون واستعملوها ، إلا أن المسلمين وحدهم هم الذين اخترعوا ملح البارود كمادة متفجرة دافعة قابلة لإطلاق القذائف ، وعندهم أخذته إنجلترا ثم بقية أوروبا . . .

ويقول " محمد كرد علي " في كتابه " الإسلام والحضارة العربية " : " وكان الرازي ، وابن جابر ، أول من وضعاً أساس الكيمياء الحديثة ، وحاولا كشف الأكسير الذي يحول الحياة . . . وكانا يذهبان إلى معرفة حجي الفلاسفة الذي يحول المعادن إلى ذهب ، ولم تذهب هذه الأبحاث الوهمية سدى ، لأنهم

عرفوا بها التقطير ، والتصعيد ، والتجميد ، والتحليل وكشفوا الغول من المواد السكرية ، والنشوية
الخاتمة .. " .

وفي مجال " الصناعة " سيأتي تنمية بحث الحضارة في مجال " الكيمياء " للصلة الوثيقة بين
الموضوعين والارتباط المتين بين البحثين ..

ط - في الصناعة :

من الأمور المجمع عليها لدى الحضاريين أن المسلمين أبدعوا في مجال الصناعة أيما إبداع ، وقد
برزوا في كثير من الصناعات المتنوعة ، واستفادت أوروبا في مجال صناعاتهم أعظم استفادة ، بل كانت
صناعات المسلمين تحويلاً كبيراً في النهضة الصناعية الحديثة ..

واليك - أخي القارئ - أهم الصناعات التي أبدعوها في القرون السالفة :

* يقول " فيليب حتى " في كتابه " تاريخ العرب " :

" ويعتبر الورق من الخدمات الكبيرة التي أسداها الإسلام إلى أوروبا والعالم " .

* ويقول الدكتور " عاشور " في كتابه " المدينة الإسلامية " :

" وازدهرت في الأندلس صناعة الفخار ، والفسيفساء الملونة ، وكذلك المنسوجات ..

ويورد " المقري " في كتابه " نفح الطيب " أنه كان في " المرية " وحدها ٤٨٠٠ نول ، وفي "

قرطبة " ١٣٠٠ نول ، ومن الأندلس انتقلت هذه الصناعة إلى أوروبا ، فانتقلت إلى إيطاليا ، وفرنسا ،

وغيرها ، وقد اشترك المسلمون هناك في تأسيس معاملها ، وكذلك انتقلت إلى أوروبا صناعات المعادن

، والزجاج ، والصناعات الخزفية الأخرى .. " .

* ويقول " محمد كرد علي " في كتابه " الإسلام والحضارة العربية " نقلاً عن " جوتييه " :

" وللعرب في باب الاختراعات شيء لا بأس به بالنسبة لعصورهم ، وقد وجد في كتاب عربي

قديم لم ينقل إلى اللغات الأوروبية ، أن العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعي ، ولم تعرف أوروبا سر

هذه الصناعة إلا في النصف الأول من القرن السادس عشر . وأدخلوا على أوروبا الورق المعمول من القطن ، والورق الرخيص الثمن . . . " .

وكانت معامل " شاطبة " في إسبانيا تصدر بضاعة الورق إلى أوروبا الغربية ، بينما كانت أوروبا الشرقية تشتري ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة ، على ما يشهد لذلك اسم الورق الدمشقي " شارتا ماسينا " وصنع الورق من الحرير سنة ٦٥٠ م في سمرقند وبخارى ، ثم استبدل " يوسف بن عمرو " سنة ٧٠٦ م الحرير بالقطن ، ومنه الورق الدمشقي الذي ذكره مؤرخوا اليونان ، قال " جوتيّة " :

" إن العرب علمونا صنع الكتاب ، وعمل البارود ، وإبرة السفينة ، فعلى أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدنية العربية ؟ " .

ويقول : " عرفت العرب آلة الظل ، والمرايا المحرقة ، والمرايا المحرقة بالمقطوع ، وقطعوا شوطاً كبيراً في الميكانيكيات ، ولما بعث الرشيد العباسي الساعة الدقاقة الكبيرة إلى شارلمان تعجب منها أهل ديوانه ، ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتها على ما حقق ذلك " سيديليو " في كتاب " تاريخ العرب " .

- ويقول : " وسبقت العرب الأوربيين إلى الطيران ، وقد حاوله " عباس بن فرناس " حكيم الأندلس ، وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة ، وهو أول من مثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلاً يحلّل للناظر أنه حقيقة . . " .

- ويقول : " وعرف الأندلسيون الطبع بالحروف قبل مخترعه المشهور " جوتنبرغ " الألماني بأربعمائة سنة ، وكان " عبد الرحمن بن بدر " من وزراء الناصر ينفرد بالولايات ، فيكتب السجلات في داره ، ثم يعثها للطبع فتطبع ، وتخرج إليه ، فتبعث في العمال ، وينفذون على يديه " .

- ويقول نقلاً عن " سنيوبوس " :

"معظم صناعاتنا في التزّين قد أتت من العرب : كالتياب الدمشقية القطنية ، و ثياب الحرير المزركشة بالفضة والذهب ، والشاش الموصل ، والشفوف ، والخبر ، والمخمل ، والورق ، والسكر ، والحلويات .."

* ويقول " رفول " في كتابه " تاريخ الجيش الفرنسي " :

" إن الإفرنج أخذوا من العرب عادة الفروسية واقتبسوا نصف حصون المدن ، وأخذوا أيضاً طريقة استعمال النار اليونانية " أي الصواريخ " وهي أفضع ما يكون إحراقاً إذا اندلع لهيبها ، وكانت دمشق في الذروة العليا من حيث صناعتها ، يصنع فيها دروع تقي وقع السهام ، وخوذات كاملة ، وسيوف جميلة محلاة بالفولاذ ، وإن الإفرنج نقلوا عن العرب عادة استعمال الدروع في وقعة " بواتية " بين العرب " وشارل مارتيال " .. "

* ويقول " لافيس ورامبو " في كتاب " التاريخ العام " :

" ونهض العرب في فارس والأندلس وصقلية وإفريقية .. لاستثمار المعادن يستخرجونها من مناجمها ، ويحسنون تطريقتها والانتفاع بها ، واستخرج الأندلسيون من مناجمهم : الزئبق ، والتوتياء ، والحديد ، والرصاص ، والفضة ، والذهب ... واستثمر العرب المناجم التي صارت ملكاً لهم في بلادهم في الشرق والغرب ، واستخرجوا الحديد في خراسان ، والرصاص في كرمان ، واستخرجوا القار ، والنفط ، وطينة الأواني الصينية ، ورخام طوريس ، والملح الأندرائي ، والكبريت .. "

ى - في الزراعة :

لقد تقدم المسلمون في مضمار الزراعة تقدماً ملحوظاً ، وكان لهم الأثر الأكبر في هذا المجال ..

واليك - أخي القارئ - أهم فنون الزراعة التي أبدعها المسلمون في العصور السالفة :

* يقول " فيليب حتى " في كتابه " تاريخ العرب " : " تقدمت الزراعة كثيراً كما تقدمت وسائل

الري كذلك ، وتعتبر رسالة " كتاب الفلاحة " لأبي زكرياء يحيى بن محمد العوّام من أهم المؤلفات في هذا

الموضوع في العصور الوسطى ، شرح فيها مئات الأنواع من النباتات ، وطرق زراعتها ، ويحتوي على دراسات جديدة في التطعيم ، وخصال التربة والسماذ ، ووصف الأمراض ، وطرق علاجها . . . " .

* ويقول " قدرى طوقان " في كتابه " تاريخ العرب " :

" . . . وكان المسلمون يعرفون خواص الأتربة ، والسماذ الملائم لها . . أكثر من غيرهم إلى درجة عالية ، وكان لذلك أثره في الزراعة " .

* ويقول الدكتور " الحجى " في كتابه " الحضارة الإسلامية في الأندلس " :

" والمسلمون الذين حملوا معهم إلى إسبانيا زراعة الزيتون ، والبرتقال ، والكروم ، والأرز ، وقصب السكر ، والقطن . . والتي لاتزال حتى الآن تشتهر إسبانيا بهذه المزروعات ، وتنتج أجودها ، ثم زراعة الحقائق التي لا تزال إسبانيا مشهورة بها حاليًا ، وكل هذه المؤلفات - التي تتعلق بالزراعة - ترجمت إلى اللاتينية . . . " .

ك - في الطب :

لعلماء الإسلام أثرهم الأكبر في ميدان الطب ، فهم الذين جاءوا بأشياء جديدة ، وأبدعوا علاجات حديثة بعضها لا يزال معمولًا به حتى اليوم . .

واليك - أخى القارئ - أهم هذه الآراء الجديدة التي أتوا بها في ميدان الطب :

* يقول الدكتور " عاشور " في كتابه " المدينة الإسلامية " : " فأبو القاسم خلف بن عباس القرطبي " المتوفى ٤٠٤ هـ المعروف " بالزهراوي " ، هو صاحب كتاب الموسوعة الطبية "التصريف لمن عجز عنه التأليف " الذي ترجم بعضه إلى اللاتينية في القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ، وهو كتاب في الجراحة ، أورد فيه آراء جديدة أكد عليها المؤلف ، وتمكن من سحق الحصاة في المثانة ، وتشريح الأجسام الحية والميتة ، وأجرى عمليات في العيون ، والأسنان ، والولادة ، وكان يتخذ الخيوط اللازمة لخياطة الجروح من أمعاء بعض الحيوانات . . . " .

* ويقول " فيليب حتى " في كتابه " تاريخ العرب " :

" ويوم انتشر مرض الطاعون في أوروبا في منتصف القرن الثامن الهجري " الرابع عشر الميلادي " ، ووقف هناك الأطباء حياله مكتوفي الأيدي على اعتبار أنه من قضاء الله في هذا الوقت بالذات وضع الطبيب الغرناطي المسلم " ابن الخطيب " كتابه " حقيقة السائل عن المرض الهائل " ليؤكد فيه نظرية العدوى ويبرهن عليها . . " .

* ويقول " الرفاعي " في كتابه " الإنسان العربي والحضارة " :

" أبو بكر الرازي (٨٥٠ - ٩٣٢) م ، كان أول من دَوّن من العرب ملاحظاته على مرضاه ، وراقب تطور المرض وظواهره ، وأثر العلاج فيه ، وكان كثير الملاحظة ، عظيم الإنتاج . . وهو أول من وصف الجدري والحُصبة في رسالته المشهورة ، وهو أول من قال بالعدوى الوراثية ، وأول من استخدم الماء البارد في أمراض الحميات المستمرة مما أخذ به علم الطب الحديث . . " .

وأشهر كتبه في الطب : " الحاوي " و " رسالة في الجدري والحُصبة " و " الكتاب المنصوري " و " كتاب الأسرار " و " الكتاب الجامع " و " كتاب طب الفقراء " و " طبيبك بين يديك " . . . وأكثر هذه الكتب ترجمت إلى اللاتينية ، وإلى الإنكليزية والإيطالية ، وكتابه " الكتاب المنصوري " بقي كتاب التدريس المقرر في جامعات أوروبا الطبية ، حتى القرن السابع عشر ، وطبع عدة طبعات في ميلانو ، والبندقية ، وليون ، وبادوا ، وبال . .

* ويقول " الرفاعي " أيضاً : [" وابن سينا " (٩٨٠ - ١٠٣٧) م هو أسطع نجم في سماء الطب العربي وألمع شخصية من الشخصيات العلمية الإسلامية في جميع مجالات العلوم ، ففي مجال الطب هو أول من وصف التهاب السحايا الأولى وصفاً دقيقاً ، ووصف أسباب اليرقان وصفاً واضحاً مستوفياً ، وفرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي في الدماغ أو عن سبب خارجي ، وفرق بين داء الجنب وألم الأعصاب ما بين الأضلاع ، ووصف السكتة الدماغية الناتجة من كثرة الدم ، ووصف أعراض حصى المثانة ، وانتبه إلى أثر المعالجة النفسانية في الشفاء . .

وتأليفه الطبية تمتاز بحسن وضعها وبترتيبها وإبرازها في قالب منطقي قوي الحجة قاطع البرهان مما جعل كتاباته شديدة التأثير على رجال العلم في القرون الوسطى حتى قال "أوسار" عن كتابه " القانون في الطب " :

" إن كتاب القانون " لابن سينا كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمان ، لأنه كان الكتاب الطبي عند العرب والإفرنج لمدة تنوف على الثمانية قرون . .

وأبرز كتبه في الطب " القانون في الطب " و " الإرجوزة في الطب " و "الشفاء " . . .
ويقول الدكتور " السباعي " رحمه الله في كتابه " روائع من حضارتنا " :

" ويقول المستشرق " سيدو " عن الرازي وابن سينا بأنهما سيطرا بكتبهما " الطبية " على مدارس الغرب زمناً طويلاً ، وعرف " ابن سينا " في أوروبا طبيباً ، فكان له على مدارسها سلطان مطلق ستة قرون تقريباً ، فترجم كتابه " القانون " المشتمل على خمسة أجزاء ، فطبع عدّة مرات لاعتباره أساساً للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا . . . " .

* ولم يقتصر اهتمام المسلمين بالطب على البشري منه فقط ، بل كان الاهتمام بالطب البيطري كذلك .

يقول مستر " شريف " في كتابه " دراسات في الحضارة الإسلامية " : " ومما عُني بالطب البيطري " يعقوب بن أبي حزام " في القرن الرابع الهجري " العاشر الميلادي " ، وله رسالة " الفروسية وشيأه الخيل " حوت كثيراً من مبادئ فنّ البيطرة [.
أما المستشفيات ^(١) :

(١) ارجع إلى كتاب " الإنسان العربي والحضارة " لمؤلفه " أنور الرفاعي " تجد البحث عن المستشفيات كافياً وافياً ص : " ٥٩٤ - ٤٦٢ " . والبحث أخذ منه باختصار .

فكان الاهتمام بها - في العصور الإسلامية عبر التاريخ - اهتمامًا بالغًا ، وظهرت في العالم الإسلامي مستشفيات متخصصة لأنواع من الأمراض ، وكثيرًا ما كان يطلق عليها اسم " بيمارستانات " ، وأهم هذه المستشفيات هي :

١ - مستشفيات الجذام :

كان يجمع فيها المجذومون ، ويعزلون عن المجتمع حتى لا يسري دأؤهم إلى غيرهم ، ثم يعالجون ، وأول مستشفى للجذام في الإسلام أنشأه " الوليد بن عبد الملك " عام " ٧٠٧ " م بينما بني أول مستشفى للجذام في أوروبا في القرن الثاني عشر نقله إليها الصليبيون عن سوريا . .

٢ - مستشفيات المجانين :

أقيمت منذ العصر الأموي في سوريا ، وأفردت حجر خاصة في المستشفيات العامة لمداواتهم عقليًا ونفسيًا ، بينما كانت أوروبا تداوي المجانين بالضرب المبرح .

٣ - المستشفيات العسكرية :

أقيمت مستشفيات خاصة للجيش تنقل معه أينما سار ، ويرافق المستشفى ممرضات يتخصصن بتمريض جرحى الحرب والجند . .

وقد روى " ابن خلكان " : أن المستشفى العسكري للسلطان " محمود السلجوقي " كان ينقل على أربعين جملاً ، وبينما كان إسعاف الجنود في أوروبا يلتقى على عاتق الجندي نفسه ، ولم يوجد " الصليب الأحمر " والممرضات في الجيش إلا بعد " حرب القرم " عام ١٨٥٤ - ١٨٥٦ م في أوروبا ، كان المسلمون قد سبقوهم بأكثر من ألف عام إلى ذلك .

٤ - مستشفيات السجون :

أوجدت في بغداد في العصر العباسي الأول

٥ - ملاجئ العجزة والعميان والأيتام :

أوجدت منذ عصر " الوليد بن عبد الملك " ، وزادت في العصر العباسي .

٦ - المستشفيات المتنقلة :

في العصر العباسي أوجد هذا النوع من المستشفيات التي تنتقل في الريف والقرى البعيدة عن المدن والتي لا يوجد فيها أطباء ، ويكثر عملها وعددها عند انتشار بعض الأوبئة ، وربما كان ذلك أول خدمة طبية في العالم للريف وسكانه . .

٧ - محطات الإسعاف :

وتقام بالقرب من الجوامع ، وفي أماكن تجمع الناس ، وقد أفرد " ابن طولون " في مسجده مكاناً خاصاً للإسعاف ، عليه أطباء متناوبون ليل نهار . . يسعفون المصابين والناس أجمعين عند الحاجة . .

٨ - المستشفيات العامة :

لم تخل منها مدينة كبيرة ، لا في المشرق ولا في المغرب ، وكان الخلفاء والأمراء والأغنياء . . يتبارون بإنشائها ، والتبرع لها ووقف الأوقاف الواسعة لديمومتها والإنفاق عليها ، وهذه المستشفيات كلها كانت تلحق بها " صيدلية " مجهزة بالأدوية ، وتقدم الدواء والغذاء بل والكساء أحياناً مجاناً دون تفريق في اللون أو الجنس أو الدين . . بين القادمين عليها ، وكثيراً ما كانت إدارة المستشفى تدفع للمعاقين الفقراء مالاً يساعدهم على كسب قوتهم بعد الشفاء ، كما كان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب ، يدرس الطلاب فيها المؤلفات الطبية ، ويتمرنون ويعاينون المرضى يومياً في المستشفى ، وكانت نفقاتهم على حساب المستشفى لكون التعليم كان مجاناً في العصور الإسلامية السالفة في جميع مراحل التعليم .

وهذا كله مفخرة من مفاخر حضارتنا في التاريخ !! وإذا أردنا أن نوازن بين ما وصل إليه الطب من ازدهار في العصور الإسلامية الزاهية ، وبين ما خيم على الأوروبيين من جهل في هذا الفن في العصور الوسطى . . وجدنا البون شاسعاً ، والفرق كبيراً ما بين العصرين :

يقول الدكتور " عاشور " في كتابه " المدينة الإسلامية " :

" . . ويورد لنا " أسامة بن منقذ " قصة على مستوى الطب الأوروبي في العصور الوسطى أيام الحروب الصليبية مما يشير إلى جهلهم بالطب ، واعتبارهم المرض نوعاً من العقاب الإلهي لا يصح للإنسان معالجته ، أو يعمل على البرء منه . . هذا في الوقت الذي كانت فيه حتى المستشفيات المتنقلة ، والطب النفسي ، معروفاً عند المسلمين " .

ويجب أن لا يغرب عن البال أن علم الطب عند المسلمين انتقل إلى أوروبا عن طريق الأندلس ، والحروب الصليبية . .

يقول الدكتور " عبد الرحمن الحجّي " في كتابه " الحضارة الإسلامية في الأندلس " :
" وعن الأندلس انتقل علم الطب إلى أوروبا حيث ترجمت هذه الكتب إلى اللاتينية ، وتدل كثرة الاصطلاحات الطبية في اللغات الأوروبية ذات الأصل العربي على هذا الأثر . . "

ل - في الصيدلة والأدوية :

كما أن لعلماء المسلمين أثرهم الأكبر في ميدان الطب والجراحة ، فإن لهم كذلك الباع الأعظم في ميدان الصيدلة ، وتركيب الأدوية . .

واليك - أخي القارئ - أهم المكتشفات الصيدلانية التي أبدعوها :

يقول " أنور الرفاعي " في كتابه " الإنسان العربي والحضارة " :

" أوجد العرب طرق التقطير ، والتكليس ، والتحويل ، والتبخير ، والتبلور ، وهم الذين اكتشفوا الكحول ، والقلويات ، والنشادر ، ونواتر الفضة ، والراسب الأحمر ، والبورق ، وحامض الطرطير ، وملح البارود ، والقللي ، والزرنيخ ، وزيت الزاج ، والبوتاس ، وروح النشادر . .

والعرب هم أول من ألف " الأقرباذين " " علم تركيب الأدوية " . .

أما الأدوية التي اكتشفوها فمنها : السّنامكي ، والكافور ، والصندل ، والراوند ، والمسك وجوز القيقق والتمر الهندي والحنظل ، وجوز الطيب ، والقرفة ، وهم الذين اخترعوا الأشربة ، والكحول ، والمستحلبات ، والخلاصات العطرية . .

وتوصل الأطباء .. إلى عمل الترياق المؤلف من عشرات الأدوية ، وهم أول من استعمل الحشيش والأفيون .. للتخدير . ومن كبار العلماء الذين لهم شهرة ذائعة في علم النبات وتركيب الأدوية .. العلامة الكبير " ابن البيطار " ^(١) ومن أشهر كتبه في هذا الفن : " المغني في الأدوية المفردة " و " الجامع لمفردات الأدوية والأغذية " ..

ويصف " ابن أبي أصيبعة " هذا الكتاب الأخير فيقول : " استقصى ابن البيطار في كتابه الجامع ، ذكر الأدوية المفردة وأسماءها وتحريها وقواها ومنافعها ، وبَيَّنَّ الصحيح منها ، وما وقع الاشتباه فيه " ونشر " ابن البيطار " كتاباً ثالثاً سماه " المغرب " ضمَّ فيه - ٢٣٣٠ - فصلاً عن الأطعمة والأدوية النباتية ، وقد عثر فيه على - ٣٠٠ - وصفاً لأدوية كانت مجهولة عند الذين تقدّموه وتناولوا هذا الموضوع ..

ولهذا اشتهر " ابن البيطار " ، ولا يزال يعرف في أوروبا بلقب " أبو علم النبات " ، كما يلقب " هيرودوت " " أبو التاريخ " ا هـ .

يقول " قدري طوقان " في كتابه " العلوم عند العرب " " فابن البيطار أعظم عالم نباتي في القرون الوسطى ، كتب " المغني في الأدوية المفردة " و " الجامع لمفردات الأدوية والأغذية " الذي يحتوي على الأدوية ، فأورد في هذين الكتابين وصف أكثر من - ١٤٠٠ - عقار نباتي وحيواني ومعدني منها - ٣٠٠ - جديدة ، وقد بين الفوائد الطبية لجميع هذه النباتات ، وكيف يكون استعمالها كأدوية وأغذية . ويعتبر هذا الكتاب أعظم كتاب في العصور الوسطى في موضوعه ، وترجم إلى اللاتينية ، ولغات أوروبية أخرى " .

ومما يشهد لفضل المسلمين في هذا الفن العالم الغربي " هوميلد " فلنسمع إلى ما يقوله في كتابه " عن الكون " : " والعرب هم الذين أوجدوا الصيدلة الكيماوية ، وأدّت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم

(١) اسمه : ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ساح في إسبانيا ، والمغرب ، ومصر ، وسورية ، وآسيا الصغرى ، توفي سنة ٦٤٦ هـ .

عليهما فنّ الشّفاء إلى دراسة علم النبات ، والكيمياء في وقت واحد ، وبالعرب فتح عهد جديد لذلك العلم ، وأوجدت خبرة العرب بالعالم النباتي بالإضافة إلى أعشاب " ذليفور يدس " ألفي صنف من النبات ، واشتملت صيدلتهم على عدّة أعشاب كان يحهلها الإغريق جهلاً تامّاً . . " .

هذا الذي ذكرناه من علوم المسلمين الكونية ، وآثارهم الحضارية . . ما هو في الحقيقة إلا غيض من فيض بالنسبة لأبجر العلوم الزاخرة ، وسيول المعارف الهادرة . . التي خلفها الجدود الأجداد النبغاء خلال العصور ، وعبر التاريخ . .

ولقد رأيت - أخي القارئ - أن المسلمين حينما فتحوا الأندلس حملوا إليها علومهم ومعارفهم وآثارهم . . فكانت سراجاً منيراً انتشر شعاعه في أوروبا ، وحضر أهلها إلى الاشتغال بهذه العلوم التي وصلت إليهم من الشرق ، وكان لزاماً عليهم إذ ذاك أن يترجموا الكتب العربية ، وقد فعلوا ذلك وبدءوا به أواخر القرن الحادي عشر ، وكانت الطريقة الشائعة في الترجمة أن يُترجم الكتاب إلى عدة لغات لتستفيد أوروبا من علوم المسلمين الشاملة ، وآثارهم الكثيرة المتنوعة .

وسوف تجد - أخي القارئ - في بحث " الشهادات " كيف شهد المنصفون من علماء الغرب بحضارة الإسلام الشاملة :

في مجال الفلسفة والتاريخ ، والجغرافيا ، والفلك ، والهندسة ، والرياضيات ، والفيزياء ، والصناعة ، والزراعة ، والطب والأدوية . . ؟ وكيف أثرت بنهضتهم على الحضارة الحديثة ؟ وهذا مما يدل على أن القرآن الكريم هو مشعل العلم ، وأن الإسلام هو دين الحضارة . . على مدى الزمان والأيام . ! .

ج - ميدان اللغة والأدب

لما انطلق العرب المسلمون من جزيرتهم ، ونزلوا الشام والعراق وفارس والأندلس ، فعلت البيئة الاجتماعية بمظاهرها الخلابة ومناظرها الجميلة . . فعلها الكبير في عقولهم، وشعرهم ، وبلاغتهم . . فجاء أدبهم خلابة بمعانيه وتصويره وتأثيره . . ممزوجاً بالخيال الواسع ، ومعبراً عن واقع الحياة . . هذا فضلاً عما اكتسبوه من بلاغة القرآن الكريم ، وفصاحة السنّة النبوية ، لما للقرآن الكريم من إعجاز بياني فريد ، ولكلام الرسول صلى الله عليه وسلم من أسلوب بلاغي رائع . .

ولقد نمت هذه الموهبة الأدبية في نفوس العرب المسلمين أكثر لما وطئت أقدامهم أرض الأندلس فاتحين ومحربين ، حيث تأثروا بالبيئة الرائعة الخلابة ، وأعجبوا بالمنظر الفاتن الجميل . .

ويقول " محمد كرد علي " في كتابه " الإسلام والحضارة العربية " " وارتقى الأدب في أهل الأندلس حتى في النساء لشيوخ التعليم في العامة والخاصة ، وغلب الشعر على أصقاع بعينها مثل " شلب ، ووادي آسن " حتى قلّ من أهل " شلب " من لا يقول شعراً ، ولا يعالج أدباً رائعاً ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه ، وسألته عن الشعر ، قرض من الشعر من ساعته ما اقترحت عليه ، وأي معنى طلبته منه ؟ " .

واليك - أخي القارئ - هذه الأبيات التي تفيض رقةً وعذوبةً ، وتدل على كعب عالٍ في الأدب ، وعلى مستوى رفيع في الشعر ، وقد نسبت إلى الشاعرة " حمدونة " فلنستمع إليها وهي تصف وادياً نزلت فيه :

وقانا لفحةَ الرضاءِ وادٍ	سقاءهُ مُضَاعَفُ الغيثِ العميمِ
حللنا دَوْحَه فحنا علينا	حنوّ المروضاتِ على الفطيمِ
وأرشفنا على ظمأٍ زلالاً	الذَّ من المدامةِ للنديمِ
يصدّ الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيمِ
بروع حصاهِ حالية العذارى	فتلمس جانب العقدِ النظيمِ

ولا يمكن في هذه العجالة أن أبين الخصائص والمزايا التي اشتملت عليها اللغة العربية وآدابها المتمثلة في بلاغتها وشعرها وعروضها . . ولا يمكنني أن أعرج إلى فضل القرآن الكريم والسنة النبوية في العرب ، واللغة العربية وامتدادها وخلودها على مدى الزمان . . لأن الكلام عن هذا لا يتسع له مجلد ولا مجلدات . .

ولكن الذي أريد أن أذكر به وأشير إليه في هذا البحث الذي نحن بصدد أن اللغة العربية المتميزة ، وآدابها الفريدة أثرت كل التأثير في لغة الأوروبيين ، وفي شعرهم وأدبهم . .

أما أثر اللغة العربية في لغة الأوروبيين فحسبنا أن آلافاً من الكلمات العربية الأصيلة دخلت على لغات الأوروبيين المتنوعة حينما أقبل الغرب بكليته على حضارة المسلمين في القرون الوسطى ، يرتشف الكثير من علومهم ومعارفهم فارتشف مع حضارة العلوم أصالة اللغة ، ونهل مع مدنية المعارف الأشياء . . فجاءت اللغات الأوروبية من جرّاء هذا الارتشاف والاقتراس مطعمة بكلمات عربية أصيلة حتى في الفاظ التخاطب ، وكلمات الاصطلاحات العلمية . .

واليك - أخي القارئ - بعض هذه الكلمات الأجنبية والاصطلاحات العلمية التي تعود إلى أصل عربي وتراكيب عربية . .

من الاصطلاحات العلمية في تركيب العين مثلاً : القرنية ، الشبكية ، السائل المائي ، السائل الزجاجي . .

ومن أسماء الأشياء المعروفة المتداولة : السكر ، جمل ، قطن ، جبر ، صفر ، جغرافية ، كيمياء . .

ومئات كثيرة غيرها ، ماثلة في اللغات الأوروبية هنا وهناك .

أما تأثير الأدب العربي على أدب الأوروبيين وشعرهم فنترك الكلام إلى المستشرق "غوستاف لوبون" ليبين لنا ماذا نقلت الأمم اللاتينية عن العرب ؟ وماذا استفادت من شعر وأدب ؟

يقول " غوستاف لوبون " في كتابه " حضارة العرب " : " حمل العرب إلى الغرب في جملة ما حملوا روحهم الشعرية ، فأولع بالشعر مَنْ أهل تلك الديار ، ولم يكن الشعر قد ارتقى في أمم الغرب ، وكانت بعض الشعوب إلى عهد قيام العرب لا تعرف شاعراً يرفع رأسها ، اللهم إلا بعض أغانٍ أشبه بشعر العامة منه بشعر الخاصة .

فكان من اختلاط العرب بالإفريق في الأندلس ، وصقلية ، والجزائر الشرقية . . ما لقن تلك الأمم اللاتينية معنى الشعر ، فنقلوا عن العرب ما أولعت به نفوسهم ، ولألم طباعهم : كالملاحم ، والفروسية . . " .

فإذا كان فن الشعر يتطلب من الشاعر أن يضمّن أدبه التصوير ، والتشبيه ، والمجاز ، والاستعارة . . عرفنا جيداً أن الغربيين استفادوا من أدب العرب أيضاً الصُّورَ والأخيلة وعلم البيان والمعاني ، وكل ما له صلة بفن البلاغة وبحوثها . . ولا شك أن الأندلس في عهد المسلمين بلغت الذروة في الإبداع الشعري ، والنبوغ الأدبي ، ولاشك أن الأوروبيين استفادوا من أدب العرب ، واصطلحاتهم الشعرية ومقطوعاتهم الأدبية . . فاقبسوا منهم البلاغة الرائعة ، والفصاحة النادرة ، والمعاني الفريدة . . وضمّنوها شعرهم وأدبهم . . فجاءت على المستوى الأرفع في الجمال والكمال . . !! . .

تلکم أهمّ الجوانب الحضارية التي برز فيها علماء الإسلام في شتى الميادين الفكرية، والعلمية، والأدبية . .

ولقد رأيت - أخي القارئ - أن الإنسانية كلها على العموم ، وأوروبا بأسرها على الخصوص اقتبست من حضارة المسلمين ومعارفهم على مرّ القرون ومدى التاريخ الكثير والكثير ، ولم تتألق الحضارة المادية الحديثة شرقاً وغرباً إلا بفضل ما أخذوه عن علماء الإسلام.

عن طريق صقلية ، والأندلس ، والحروب الصليبية . . . من حضارة مشرقة ، وعلوم حيّة ، ومعارف كونية متجددة . . فكانت الدولة الإسلامية في العصور الذهبية الأولى أستاذاً وإماماً للعالم التائه ، والإنسانية الحائرة . .

ولنستمع إلى ما نقله " غوستاف لوبون " عن الأستاذ " ليبري " قوله : " لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدّة قرون " .
وسوف تجد - أخي القارئ - في بحث " الشهادات " شهادة أولئك الأعلام الغربيين في تأثير حضارة الإسلام على النهضة الأوروبية الحديثة . .
وماذاك إلا برهان قاطع على أن الإسلام دين العلم والحضارة ، وشريعة التقدم والنهوض . .
ألا فليعلم شبابنا عظمة إسلامهم ، وسمو دينهم في الشمول ، والعالمية ، والخلود ؟ !! .

الفصل الثالث :

مَعَابِر الحضارة الإسلامية

وثناء الغربيين عليها

قبل أن نخوض في الحديث عن معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب ، وثناء الغربيين عليها يحسن أن نتكلم عن حالة الأوروبيين العامة في القرون الوسطى ، لنعرف جلياً كيف عبرت الحضارة الإسلامية إليهم ؟ وكيف أثرت فيهم ؟ وكيف حوّلتهم من أمم متخلفة جاهلة إلى أمم متقدمة عالمة ؟ لها في الحضارة شأن ، وفي ميدان العلوم ذكر !! .

ولكي نخطط بالبحث من جميع جوانبه نقسم البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

- ١ - حالة الأوروبيين العامة في القرون الوسطى .
- ٢ - معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب .
- ٤ - شهادة المنصفين من الغربيين بعظمة الحضارة الإسلامية .

* * *

١ - حالة الأوروبيين العامة في القرون الوسطى

لو استقرأنا حالة الأوروبيين العامة قبل أن تسطع حضارة الإسلام على ديارهم وشعوبهم . .
لرأيناها في المنحدر الأسفل فكراً وخلقاً وعلماً ، بل كانت أشبه بالبهائم منهم بالناس . .
واليك - أخي القارئ - شهادة المختصين من مستشرقين ومستغربين على سوء الحالة المتردية
التي كانت عليها أوروبا :

* يقول المستشرق الهولندي " دوزي " : " إن في كل الأندلس لم يكن يوجد رجل أُمِّي بينما لم
يكن يعرف القراءة والكتابة في أوروبا معرفة أولية إلا الطبقة العليا من القسس " .
* ويقول " لين بول " في كتابه " العرب في إسبانيا " " فكانت أوروبا الأمية تزخر بالجهل والحرمان
، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم ، وراية الثقافة في العالم " .
* ويقول " لوبون " في كتابه " حضارة العرب " : " إن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً
يسكنها " سنُّورات " متوحشون يفخرون أنهم لا يقرءون " .

* ويصف لنا " صاعد الأندلسي " المتوفى ٤٦٢ هـ - ١٠٧٠ م سكان الأقطار الأوروبية
فيقول : " إنهم أشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن من كان منهم موعلاً في بلاد الشمال فَطَعَتْ أبدانهم ،
وابيضَّت ألوانهم وأسدت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الإفهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل
والبلادة ، وفشى فيهم العمى والغباوة . . " .

* وينقل لنا " أبو عبيد البكري " عن رحالة أندلسي عاش في القرن الرابع الهجري هو "إبراهيم
بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي " نصّاً في وصف " الجلاقة " " وهم سكان شمال إسبانيا " بأنهم : "
أهل غدر ودناءة أخلاق ، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ، ولا يغسلون
ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم
وتصح ، وثيابهم أضيق الثياب ، وهي مفرجة "مثقوبة" ويبدو من تقاربها أكثر أبدانهم . . "

ويقول عن الصقالبة : " والجنس الذي ذكرنا أنه يدعى " سرّنين " يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات
رئيسهم ، ويحرقون دوابهم ، ولهم أفعال مثل أفعال الهند . . وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت ،

ويزعمون أن سرورهم وإطرابهم لرحمة ربه إياه، ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوههن بالسكاكين ، وإذا زعمت واحدة منهن أنها محبة علقت حبلاً ، وارتقت إليه على كرسي فتشد به عنقها ثم يجذب الكرسي من تحتها فتبقى معلقة تضطرب حتى تموت ثم تحرق وتُلحق بزوجها . . " .

* ويقول " فكتور روبنصن " في موازنته بين الحضارة الإسلامية في الأندلس وبين الحالة في أوروبا :
" كانت أوروبا في ظلام حالك بعد غروب الشمس ، بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة ، كانت أوروبا قدرة بينما شيدت " قرطبة " ألف حمام ؛ كانت أوروبا تغطيها الهوام بينما كان أهل قرطبة مثال النظافة ، كانت أوروبا غارقة في الوحل بينما كانت قرطبة مرصوفة الشوارع ، كانت سقوف القصور في أوروبا مملوءة بثقوب المداخن بينما كانت قصور قرطبة تزينها الزخرفة العربية العجيبة ، وكان أشرف أوروبا لا يستطيعون توقيع أسمائهم بينما كان أطفال قرطبة العربية يذهبون إلى المدارس ، وكان رهبان أوروبا يلحنون في تلاوة سفرالكنيسة ، بينما كان معلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة . . " .

هذا غيض من فيض مما كانت عليه أوروبا من تأخر وهمجية ، وتقهر وانحطاط . . ولا شك أن الإسلام بترائه الفكري ، وإشعاعه العلمي ، وثورته الحضارية – كما رأيت في الفصل السابق – انتشل الأوروبيين من الجهل إلى العلم ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن التوحش إلى التمدن ، ومن التخلف إلى التحضر ، ومن ظلمة الحياة إلى نورها الوضاء المبين . . ولكن كيف وصلت حضارة الإسلام إليهم ؟ وكيف أثرت فيهم ؟ هذا ما نريد أن نفصل فيه ونوضح معالمة لكل ذي عينين وبصيرة في بحث " معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب " .

٢ - معابر الحضارة الإسلامية

وثناء الغربيين عليها

يتساءل الكثير عن الوسائل والمعابر التي أدت إلى نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، وكيف تم ذلك ؟

المؤرخون كادوا أن يكونوا مجمعين بأن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى الغرب عن طريق الوسائل

التالية :

عن طريق الأندلس ، وعن طريق صقلية ، وعن طريق الحروب الصليبية .

ويمكن أن يضاف إليها :

جنوب فرنسا ، وجنوب إيطاليا ، ومدارس الترجمة في شمال إسبانيا وفرنسا ، وإيطاليا :

ويجب أن لا ننسى انتشار الإسلام عن طريق التجار المسلمين الذين ظلوا قروناً يتجرون بين البلاد

الإسلامية وبين الكثير من البلدان الأوروبية والآسيوية وغيرها . .

ولقد دلت التنقيبات أخيراً على وجود عملات إسلامية في أوروبا الشمالية حتى فنلندا .

ويجب ألا ننسى كذلك الرحالة المسلمين الذين طافوا في مختلف الأنحاء ، وكان لهم أثر في نشر

الإسلام ، ونشر حضارته . . ، ثم فيما أنتجته رحلاتهم من تراث جغرافي أو كتابات تخص تلك الشعوب

والأقطار التي زاروها ، كرحلة ابن جبير ، وابن بطوطة وغيرهما .

ومهما أضفنا من معابر مرت حضارة الإسلام خلالها إلى أوروبا ، فستظل الأندلس هي المعبر

الرئيسي لهذه الحضارة في شتى المجالات العلمية والفنية والأدبية والاقتصادية . .

أما عن تأثير الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية في شتى المجالات فقد قرأت - أخي

القارئ - الكثير عن هذا التأثير في البحث السابق الذي كان بعنوان : "جوانب الحضارة الإسلامية

وأثرها في بناء الأمم " :

ويمكن أن نقول باختصار : لولا الحضارة الإسلامية التي أشرقت شمسها على الدنيا منذ أربعة عشر قرناً لبقى العالم الإنساني متخبطاً في دياجير الجهل ، منزلقاً في مآهات الفوضى ، منحدرًا في حضيض التخلف ..

إنها الحضارة المشرقة ، والمدنية الزاهرة والمجد العلمي العريض ..
ولنترك الكلام إلى مفكري الغرب وعلمائهم وفلاسفتهم .. ليدلوا بشهادتهم أمام من ينكرون عظمة الإسلام الحضارية ، وسموه التشريعي ، ونظامه المتجدد الشامل ..

٣ - شهادة المنصفين من الغربيين

بعظمة الإسلام الحضارية

لو استقرأنا أقوال من شهد لعظمة الإسلام الحضارية لوجدناها أكثر من أن تُحصى ؛ وها نحن أولاء سنقتطف باقة من أقوال أولئك العلماء المختصين من الغربيين ، ليعرف من يريد أن يعرف أن الفضل كل الفضل هو ما شهد به المنصفون المختصون العالمون ، نسوق هذا من قبيل أنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه ، ونسوقه أيضاً من أجل أناس لا يؤمنون بالفكرة إلا إذا هبت ريحها من الغرب !! .

واليك - أخي القارئ - هذه الباقة العطرة المتنوعة :

يقول " دويبر " المدرس في جامعة نيويورك في كتابه " المنازعة بين العلم والدين " : " ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة - ٨١٣ م - ، صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض ، فجمع الخليفة إليها كتباً لا تحصى ، وقرب إليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم " .

وبعد أن عدد مآثر المسلمين في العلوم الطبيعية قال : " .. فإنهم قد رققوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً ، وأوجدوا علومًا جديدة لم تكن معروفة قبلهم .. إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ؛ وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يغدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها .. " ..

* ويقول " سيديلوت " في كتابه " تاريخ العرب " :

" كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون .. وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم إلى أوروبا ، فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها .. " .

* ومن أقوال " غوستاف لوبون " في كتابه " حضارة العرب " :

" ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزمن .. " .

" ولم يتجلّ تأثير العرب في الشرق في الديانة ، واللغة ، والفنون . . وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافتهم العلمية أيضاً . . " .

- ونقل عن الأستاذ " ليبري " قوله : " . . لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون . . " .

* ويقول " شريستي " في حديثه عن الفن الإسلامي :

" ظلت أوروبا نحو ألف سنة تنظر إلى الفن الإسلامي كأنه أعجوبة من الأعاجيب " .

* ويقول " لين بول " في كتابه " العرب في إسبانيا " : " . . فكانت أوروبا الأمية تزخر بالجهل والحرمان ، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم ، وراية الثقافة في العالم " .

* ويقول " بريفولت " في كتابه " تكوين الإنسانية " : " العلم هو أعظم ما قدمت الحضارة العربية إلى العالم الحديث ومع أنه لا توجد ناحية واحدة من نواحي النمو الأوروبي إلا ويلحظ فيها أثر الثقافة الإسلامية النافذة ؛ ألا وإن أعظم أثر وأخطره هو ذلك الذي أوجد القوة التي تُولف العامل البارز الدائم في العالم الحديث ، والمصدر الأعلى لاتنصاره أعني العلم الطبيعي، والروح العلمية . . وهذه الحقائق مؤدّاها أن الإسلام دين بناء حضاري . . " .

* ويقول " إلياس أبو شبكة " في كتابه " روابط الفكر والروح بين العرب والإفرنجية " : " إن زوال الحضارة العربية كان شؤماً على إسبانيا وأوروبا ، فالأندلس لم تعرف السعادة إلا في ظلّ العرب ، وحالما رحل العرب حلّ الدمار محل الثراء والجمال والخصب " .

* ويقول " لوبون " في كتابه " حضارة العرب " : " . . بينما كانت هذه حال أوروبا كانت المكتبات في الأندلس تضم مئات الآلاف من الكتب في مختلف حقول المعرفة الإنسانية ، كان فيها نصيب من العلوم البحتة ، وكذلك الآداب والفنون . . " .

* ومن أراد أن يتوسع فيما تركته الحضارة الإسلامية من أثر في نهضة أوروبا الحديثة . . فليقرأ كتاب " شمس العرب تسطع على الغرب " للدكتور " زيغريد هونكة " . .

فالكتاب كله إقرار بفضل الحضارة الإسلامية على نبوغ الغرب العلمي ، وتفوّقه الحضاري ،
وإبداعه الفكري والأدبي . .

فهذه الأقوال ، وأقوال كثيرة غيرها تدلّ بشكل لا يقبل الجدل والشك على ما انطوت عليه
حضارة الإسلام من ازدهار وتفوّق ، وما اختصت به من شمول وتجدد ، وما تميزت به من واقعية
وانفتاح . .

شهد الأنام بفضلهم حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

الفصل الرابع :

النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية

سبق أن ألقينا في مقدمة هذا الكتاب أن الحضارة من حيث مفهومها لا تكون ذات طابع إنساني حتى تتصف بالرقى المادي والرقى المعنوي على حد سواء .

وسبق أن بينا أن المقصود بالرقى المادي للحضارة : مظهرها المتمثل بالصناعة والزراعة والتجارة ، وأصناف الفنون ، وأنواع العلوم . . لكل أمة ناهضة ، وشعب طموح . .

وأن المقصود بالرقى المعنوي : المبادئ الروحية ، والقيم الخلقية ، والمفاهيم الفكرية . . التي تعبر عن معتقدات الأمة ، وسلوكها ، وفلسفتها في الحياة . . وسبق أن توّهنا أن الحضارة في تحقيق هدفها ، لا تقاس بالتقدم الفكري والعلمي ، أو الإبداع الصناعي والآلي ، أو التفوق الزراعي والعمراني . . إلا بمقدار ما يكون ذلك تعبيراً عن مقاصد إنسانية سامية ، وتجسيدا لأهداف خلقية نبيلة . .

وسبق أن فصلنا في بحث مضى أن الحضارة الإسلامية بلغت الذروة العليا في القرون الوسطى ، بل كانت في نهضتها وتفوقها أستاذة الحضارات للعالم كله ، بل كان الشرق والغرب يرتشف من معينها الصافي ، وينهل من سلسيلها العذب في فترات طويلة من التاريخ !! .

وهنا يرد السؤال : هل الحضارة في الإسلام تتميز بالطابع المادي ، والطابع المعنوي على حد سواء أم تقتصر على أحدهما دون الآخر ؟

وإذا كانت تتميز بالطابع المعنوي - فهي ذات قيم روحية وذات مبادئ خلقية ، وذات فلسفة فكرية . .

وبالاختصار إنها ذات نزعة إنسانية تجلّت زمناً في حياة الشعوب ، وبناء الأمم !!
والآن نريد أن نكشف لكل ذي عينين عن حقيقة هذه النزعة ، وأن نبين مبادئها في عالم الفكر ، وأن نوضح آثارها وتطبيقاتها في عالم الواقع . . ليعلم من يريد أن يعلم أن الحضارة في الإسلام لم تقتصر على

الجانب المادي فحسب ، وإنما شملت الفضائل الإنسانية ، والمكارم الخلقية ، والقيم الروحية . . على حد سواء .

وقبل أن ندلك على حقيقة النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية يحسن أن نبين المنهج الذي سلكه الإسلام في تربية الفرد وإصلاحه من أجل أن يكون إنساناً صالحاً متوازناً مستقيماً يؤدي كل ذي حق في الحياة . .

هذا المنهج في إصلاح الفرد واستقامته يقوم على ركنين أساسيين :

الأول : تربية الضمير في داخل النفس .

الثاني : الاستقامة على شريعة الله .

ولكن ما الذي يربي الضمير في داخل النفس ؟

من المعلوم أن العقيدة الربانية المستشعرة عظمة الله وخشيته في السر والعلن إذا ترسخت في النفس البشرية ولدت الشعور بالمراقبة لله ، وولدت الشعور بالمسؤولية . . هذا الشعور الانبعاثي الذاتي يدفع النفس الإنسانية أن تحاسب نفسها قبل أن يحاسبها غيرها ، وهذا من شأنه أن يقوي الإرادة الذاتية لدى الفرد المؤمن ، فلا يكون أسيراً لشهواته ، ولا عبداً لأطماعه وأهوائه . . بل ينضبط بحساسية التقوى ، ووازع الإيمان . . بل يندفع إلى إتقان العمل وتحسينه محتسباً التماس الأجر والثواب من الله وحده!! .

ولا شك أن أداء العبادة في أوقاتها والتزام النوافل بأنواعها ، واستذكار الموت وما بعده ، واستشعار اليوم الآخر بأحواله وأهواله . .

كل هذا مما يقوي في النفس الإنسانية جانب العقيدة الربانية . . بل يجعلها تتحرر من الخوف والجنون وتقف أمام كل قوى الأرض لا ترهب سلطاناً ولا تستخذي أمام صولة الملك ، وإغراء المال ، هذه العقيدة الربانية الراسخة ترفع أصحابها من مفاتن الأرض ، ومغريات الحياة . . فيقف في المرتقى السامي ينظر إلى أبناء الحياة من علٍ مع التواضع وخفض الجناح ، وبالعزة مع الرغبة في الهداية والإصلاح . . يودّ

عن عزم وتصميم لو يرفعهم إلى هذا المستوى الذي رفعه الله إليه وينتشلهم من هذا الواقع المرير الذي أخذوا إليه وتخطوا فيه ..

أما الاستقامة على شريعة الله :

فهي ديدن المؤمن ، وغايته القصوى في الحياة ، بل هي أساس تكوينه ، ومنطلق إصلاحه ، وسلم تدرّجه في الكمال ..

والمقصود من الاستقامة التزام المسلم منهج الإسلام : في العقيدة ، وفي العبادة ، وفي الأخلاق ، وفي المعاملات .. في كل ما يتصل بالتشريع الرباني ، ويرتبط بنظام الإسلام ..

أما أن يستقيم على العقيدة وحدها ، ثم يحيد على أنظمة التشريع في المعاملات ، أو عن مناهج الإسلام في الحياة ، أو عن مبادئ الحكم في السياسة .. فيكون ممن آمن ببعض الإسلام ، وكفر ببعض ..

ومصير أولئك كما ذكر القرآن الكريم .. خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردهم الله إلى أشد العذاب !! .

قال تعالى : ﴿ أفْتُمْنُونَ بعض الكتاب وتكفرون بعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب ﴾ [البقرة : ٨٥] .

سئل الفضيل بن عياض عن أحسن العمل في قوله تعالى :

﴿ لِيُبْلِغَكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ، قال : أحسن العمل إخلاصه وأصوبه . [هود : ١١]

قالوا : يا أبا علي ما إخلاصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، فالعمل لا يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا .

وقال : والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على الشريعة .

ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فبتربية الضمير من داخل النفس . . والاستقامة على شريعة الله من خارجها . .

يبلغ المسلم منتهى التوازن ، ويصل إلى غاية الكمال . . بل يكون إنساناً صالحاً مستقيماً وقافاً عند حدود الله ، مؤدياً كل ذي حق حقه في الحياة .

ومن هنا كان جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل السائل حين سأل : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد بعدك ؟ كان جوابه : " قل آمنت بالله ثم استقم " .

ومن ثمرات هذه الاستقامة أن الله سبحانه يثبت المؤمن المستقيم بالملائكة في الحياة الدنيا ويوم الأشهاد ، ويبشرونه بمقعد صدق عند مليك مقتدر ؛ قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . . ﴿ [فصلت : ٣٠ -

[٣١

فمن البديهي بعد أن تربي المسلم على رقابة الله ، واستقام على شريعته . . أن يلتزم المبادئ الإسلامية التي تربطه ببني الإنسانية جمعاء بغض النظر عن دين هذا الإنسان أو جنسه أو لغته أو لونه . . ما دام من سلالة آدم عليه السلام ، وما دام قد تم خلقه بشراً سوياً !! .

ولكن ما هي المبادئ التي سنّها الإسلام في ربط المسلمين مع غيرهم من أهل الديانات والأقوام ؟ أو بعبارة أوضح ما هي عوامل النزعة الإنسانية التي رسّخها الإسلام في تعامل المسلمين مع غيرهم من البشر .

إليك - أخي القارئ - أميز هذه المبادئ في ربط المسلمين مع أهل الديانات والأقوام :

١ - مبدأ لا إكراه في الدين :

والأصل في ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من

الغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقوله عز وجل في سورة يونس : ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : ٩٩] .

والحكمة في عدم الإكراه :

- لأن الإكراه يقهر النفس الإنسانية ويذلّها ، ولأنه يحطم الشخصية ويقتلها ، ولأنه يزرع في القلوب الضغائن والأحقاد ، ولأنه ينزع إلى النفور وردود الفعل حين تسنح الظروف ، ولأنه يسيء إلى سمعة الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج ، ولأنه يجعل إيمان المكره غير مقبول عند الله عز وجل ، من أجل هذا كله دعا الإسلام الناس إلى الدخول فيه عن إيمان وقناعة واختيار . .
وأعلن المبدأ الثابت الذي لا يتغير " لا إكراه في الدين " .

٢ - مبدأ التعارف بين الشعوب :

والأصل في ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة الحجرات : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣] .
ولا يخفى ما في هذا التعارف من ثمرات طيبة :

- من ثمرات هذا التعارف إعطاء القدوة عن الإسلام في شخصيات المسلمين .
- ومن ثمراته التعرف على حضارات الأمم الشعوب والانفتاح عليها .
- ومن ثمراته دعوة الناس بالحجة والإقناع إلى الإسلام الحق .
- ومن ثمراته إظهار التسامح الإسلامي في التعامل مع غير المسلمين .

٣ - مبدأ العلاقات بين الدول :

والأصل في ذلك قوله تعالى في سورة الممتحنة : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبوؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [الممتحنة : ٨ ، ٩] .

والآيتان نصٌّ صريحٌ في أن الإسلام أعلن مبدأ : " نسالم من يسالمنا ونعادي من عادانا "

٤ - مبدأ تحقيق العدالة للجميع :

والأصل في ذلك قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ،
اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : ٨] .

ومعنى الآية : لا يحملتكم عداوة قوم وبغضكم لهم على أن لا تعدلوا ، حققوا العدل بينكم وبينهم
، فهذا العدل هو أقرب للتقوى .

فالإسلام رفع راية العدل في كل مكان ، فلينبضوا تحت هذه الراية كل إنسان . . بغض النظر عن
عداوته ، ودينه ، وجنسه ، ولونه . .

٥ - مبدأ الجنوح للسلم :

والأصل في ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله
إنه هو السميع العليم ﴾ [الأنفال : ٦١] .

والآية نص صريح في أن العدو أثناء القتال إذا مال إلى المسالمة والمصالحة فعلى المسلمين أن يكفوا
عن قتالهم ، ويرفعوا أمام العدو راية السلام بشرط أن لا تكون المسالمة مخادعة ، أو على حساب الدين
وهدر الحقوق . .

٦ - مبدأ المحاسنة إلى الأسرى بالمن أو الفداء :

والأصل في ذلك قوله سبحانه في سورة محمد : ﴿ ... حتى إذا أئختموهم فشدوا الوثاق
فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . . ﴾ [محمد : ٤] .

فالآية نص صريح في أن الحاكم المسلم له أن يطلق أسرى الحرب بلا فدية من مال
وهذا هو المن ، وله أن يطلقهم بفدية من مال وهذا هو الفداء . .

٧ - مبدأ المعاملة الرحيمة في الحرب :

والأصل في ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا
إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

فالأية نص صريح في أنه لا يجوز للمسلمين أن يقاتلوا إلا الذين يقاتلونهم من الرجال ؛ أما الذين لا يقاتلونهم من النساء أو الأطفال أو الشيوخ أو العجّز . فلا يجوز لهم بحال أن يقتلوهم أو يقاتلوهم إلا إذا انضموا لصف العدو مقاتلين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله وعن معه من المسلمين خيراً ثم يقول : " اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، اغزوا ولا تغلّوا " تخونوا في الغنيمة " ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا مُدبراً . . . " .

وفي رواية : " انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسوله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً ، ولا صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلّوا ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين " .

وهذا أبو بكر رضي الله عنه يوصي أسامة بن زيد حين وجهه إلى قتال الروم " لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرّون على قوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم إليه " .

ومن وصيته رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام " ولا تقاتل مجروحاً ، فإن بعضه ليس منه . . واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم . . " تأمل هذه الوصايا تجدها أسمى وأكمل ، وأبرّ وأرحم من كل ما يحتوي عليه تشريع لبشر ، ولا يدانيها ما وصلت إليه قوانين الدول في العصر الحديث !! .

٨ - مبدأ المحافظة على العهود والمواثيق :

والأصل في ذلك قوله تعالى في سورة النحل :

- ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم

كفيلاً ﴾ [النحل : ٩١] .

وقوله في سورة التوبة :

- ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ﴾ [التوبة : ٤] .

روى أبو داود والترمذي عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : "من كان بينه وبين قوم عهد فليشدّ عقده ولا يخلّها حتى ينتضي أمدّها وأن ينبذ إليهم
على السواء " .

من هذه النصوص يتبين أنه إذا كان بين المسلمين وبين غيرهم عهد أو معاهدة فعلى المسلمين أن
يحفظوا لهم عهدهم إلى مدته ، فإذا بدا من هؤلاء المعاهدين ما يشير إلى الخيانة والاحتيال على نقض
المعاهدة فلا تحل محاربتهم إلا بعد نبذ عهدهم إليهم ، وإعلان هذا النبذ بحيث يكون معلوماً لدى
الطرفين لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ^(١) عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

ومما يدل على هذا أن عمير بن سعد قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قدم عليه : "إن
بيننا وبين الروم مدينة يقال لها " عربسوس " ، وإنهم يخبرون عدونا بعوراتنا وقد بدت منهم الخيانة ، فلا
يظهرونا على عورات الروم ، فقال عمر : إذا رجعت إليهم فخيرهم أن تعطيهـم مكان كل شاة شاتين ،
ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء شيئين ، فإن رضوا فأعطهم إياها وأجلهم عن هذه القرية ،
وإن أبوا ذلك فانبذ إليهم وأمهـلهم سنة ثم حاربهم " .

٩ - مبدأ محاسبة الذميين :

الذميون : هم اليهود والنصارى ، والوثنيون من غير العرب كالجوس ، وعبدّة الكواكب ^(١) . .
فهؤلاء إن رضوا أن يدخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم ، وأن يعيشوا في ديارهم فعلى المسلمين أن
يحاسبوهم ، وأن يؤدّوا لهم حقوقهم . .

^(١) ومعنى فانبذ إليهم : اطرَح إليهم عهدهم وأعلمهم نقضه .
^(٢) الحنفية ، والحنابلة ، والمالكية .. هم الذين ألحقوا الوثنيين من غير العرب بأهل الكتاب الحديث : " سنّوا بهم سنة أهل الكتاب " .

وأظهر هذه الحقوق هي :

أ - يجب الكفّ عن قتالهم إذا جنحوا للسّلم ﴿ وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ [الأنفال : ٦١] .

ب - يجب المحافظة على أموالهم ودمائهم وأغراضهم وعدم ظلمهم وانتقاصهم وتكليفهم فوق طاقتهم . . لما روى أبو داود عنه عليه الصلاة والسلام : " من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه من غير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة " .

وفي نصب الراية " وإنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ، ودماؤهم كدمائنا " .

ج - يجب أن يتركوا أحراراً في معابدهم وأحوالهم الشخصية . . لقوله تعالى :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ .

كتب أحد الرعية إلى عمر بن عبد العزيز يقول " ما بال الولاة يتركوا أهل الذمة يشربون الخمر ، ويأكلون الخنزير ويتجرون بها ؟ فأجابه : أمر رسولنا أن نتركهم وما يدينون ، وإن أنت إلا متبع ولست بمبتدع " .

د - يجب أن يراعى لهم حسن الجوار ، وعدم الاعتداء ، وحق ممارسة العبادة ، ومما جاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران : " أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبيهم وسقيمهم وبريتهم وسائر ملتهم ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولهم على ذمة الله وذمة رسوله " .

هـ - يجب حمايتهم من كل اعتداء سواء أكان داخلياً أو خارجياً مقابل ما يدفعونه من جزية . . وكان مما أوصى به عمر رضي الله عنه عند وفاته : " أوصي الخليفة من بعدي بزمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يوفّي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، ولا يكلفهم فوق طاقتهم " .

- ويجب إسقاط الجزية " أي الضريبة المالية السنوية " ^(١) على الأعمى ، والمريض المزمن ، والرجل العاجز ، والشيخ الكبير ، ولا تضرب الجزية على نساء أهل الكتاب ، ولا على صبيانهم حتى يبلغوا ، ولا على عبيدهم ومجانينهم ، وأصحاب الصوامع من الرهبان . .
تأمل في هذه المحاسنة والحقوق . . لا يمكن أن يحدوها في أي نظام أرضي ، أو قانون دولي . .
إنها شريعة السماء ، ونظام الإسلام . . !

١٠ - مبدأ العفو عند المقدرة :

والأصل في ذلك قوله تعالى في سورة المائدة :

- ﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ [المائدة : ١٣] .

وقوله في سورة الأعراف :

- ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقوله في سورة آل عمران :

- ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ولننظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف عامل أهل مكة الذين أسرفوا في إيذائه ، وأمعنوا في اضطهاده ، وأخرجوه من بلده ، وتآمروا على قتله ، وقذفوه بكل بهتان من القول وزور . .
لتجلى لنا نفسه الكريمة في مرآة عفوهِ وصفحه الجميل . . (انظروا إليه فاتحاً في جيش كبير لم تر جزيرة العرب مثله يكتسح مكة ، وتطوؤها خليه . . انظروا إليه والبلاد في رحمته يشملها عفوهِ ، والسادة الزعماء الذين عتوا في الأرض وفعلوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم الأفاعيل يحزون بالبر والإحسان ، ويعاملون بالعفو والصفح الجميل ، وحكام الأرض لا تعرف لأمثالهم غير قطع الرؤوس . .) ^(١) ، فما كان

^(١) يؤخذ من الفقير القادر على الكسب في العام (١٢) درهماً ، ومن متوسط الحال (٢٤) درهماً ، ومن الغني (٤٨) درهماً ، والدرهم يساوي ثلاث غرامات ، ويقدر الغرام على حسب سعر الفضة في السوق .

^(١) من كتاب " بطل الأبطال " لعزام : ص ٥٥ .

منه عليه الصلاة والسلام إلا أن جمعهم ومَنّاهم وأمّنهم ، وقال لهم قولته الخالدة : " ما ترون أنّي فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

١١ - مبدأ الاستفادة من حضارة الأمم :

الأصل في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي والعسكري :

" الحكمة ضالة كل مؤمن فإذا وجدها فهو أحقّ بها " .

وسبق أن ذكرنا قوله تبارك وتعالى :

- ﴿ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا .. ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فمن هذين النصين يتبين أنه يجوز لأمة الإسلام أن تتعرف على غيرها من الأمم ، وتستفيد من علومها ومعارفها وتأخذ عنها ما ينفعها في مضمار الرقي المادي ، والحضارة الإنسانية .

وسبق أن ذكرنا أن المسلمين بناءً على هذه النصوص تعارفوا على كثير من الشعوب من غير ملتهم ، واستفادوا من علومهم وحضارتهم .. كحضارة الإغريق ، وحضارة اليونان ، وحضارة الرومان ، وحضارة الفرس ، وحضارة الهند ...

فكوّنت لدى المسلمين خبرات واسعة في شتى المجالات : الصناعية ، والتجارية ، والزراعية ، والعمرانية ، والعلمية ، والفنية ..

فصهروا هذه الخبرات والمعارف التي أخذوها واستفادوا منها في بوتقة الإسلام ، فجاءت الحضارة الإسلامية فيما بعد مطبوعة بطابعه ، وممّهورة بجائته .. عدا عن معالم الحضارة الجديدة التي أوجدوها وأبدعوها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً !! ..

ولكن هل كانت هذه المعارف في تقرير النزعة الإنسانية بين الأقوام غير المسلمة حبراً على الورق ، أو بوقاً للدعاية ، أو سراباً لخداع الشعوب .. أو كانت حقيقة قائمة في عالم الواقع ، وميدان التنفيذ ؟ .

فلنستقري التاريخ ليقول كلمته ويدي بجمته لكونه الحكم الفصل :

* السلطان " سليم الأول " العثماني رأى أن الرومان والبلغار ، والأرمن . . قد كثروا في مملكته كثرة مزعجة ، وأقضوا مضجع الدولة الإسلامية بفتنهم ومؤامراتهم ، فقرّر أن يجبرهم على الإسلام أو يخرجهم من مملكته ، فعارض ، شيخ الإسلام " زنبيلي علي أفندي " معارضة شديدة وقال له بلهجة فيها حدّة : " ليس لك على اليهود والنصارى إلا الجزية ، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم " . فرجع السلطان سليم عن عزمه امتثالاً لإرادة الشرع .

وهذه الحادثة التاريخية تدل على أنه لا إكراه في الدين :

* أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقاتل أهل جرباء ، وأيلة ، وأذرح بعد أن انسحبت أمامه جحافل الروم في تبوك . . أبي أن يقاتلهم لما وجد من جنوحهم للسلم امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال : ٦١] .

* وهو الذي أنكر على " أسامة بن زيد " فعلته لقتله رجلاً من المشركين استسلم للإسلام وقال كلمة الحق وقد قال له عليه الصلاة والسلام : أنتقله وقد قال ما قال ؟ .
قال أسامة : لقد قالها خوفاً من السيف .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هلا شقت على قلبه ؟ ! .

فهذه الأفعال تدل على أن من جنح للسلم علينا أن نجح له .

* ومما يرويه التاريخ أن عاملاً من عمال عمر بن عبد العزيز كتب إلى عمر يقول : إن الدخول في الإسلام أضّر بالجزية فافرضها على مَنْ أسلم ، فأرسل إليه عمر بن عبد العزيز يقول له : قبح الله رأيك . . إن الله سبحانه لم يرسل محمداً صلى الله عليه وسلم جابياً ، وإنما أرسله هادياً ، فإذا أتاك كتابي هذا فارفع الجزية عن مَنْ أسلم من أهل الجزية !! .

وهذا الموقف من الخليفة الأموي عمر يدل على أن الذمي إذا أسلم بطوعه واختياره يكون شأنه كأبي مسلم آخر له ما لنا ، وعليه ما علينا بلا ظلم ولا عدوان !! .

* لما غزا التتار بلاد الإسلام ، ووقع كثير من المسلمين والنصارى في أسرهم ، ثم عادت الغلبة للمسلمين ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية أمير التتار بإطلاق الأسرى : فسمح له الأمير التتاري بفك أسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح بأهل الذمة، فقال له شيخ الإسلام : لابد من فك الأسرى من اليهود والنصارى لأنهم أهل ذمتنا ، فأطلقهم له . . . !

وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على أن الذميين في حماية المسلمين ومناصرتهم لكونهم أهل عهد وذمة ، بل شأنهم في الحماية والرعاية كشأن المسلمين .

* وما يذكره التاريخ بملء الافتخار :

أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتص من ابن واليه عمرو بن العاص لضربه قبطياً مصرياً ظلماً بدون حق ، ثم التفت إلى عمرو وقال له قوله المشهورة : " يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ " .

وما يذكر أيضاً :

أن شريحاً القاضي حكم ليهودي في قضية درع ضد أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه لكونه وجد الحق بجانب اليهودي .

وما يذكر كذلك :

أن القاضي أبا يوسف حكم لنصراني ضد الخليفة العباسي هارون الرشيد لكونه وجد الحق بجانب النصراني .

وهذه المواقف تدل دلالة واضحة على أن مبدأ العدالة يجب أن يطبق على الجميع بغض النظر عن اختلاف الدين أو التفاوت في المرتبة تطبيقاً لقوله تعالى :

- ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : ٨] .

* ومن أروع ما نسوقه في هذا الصدد ما ذكره " البلاذري " في كتابه " فتوح البلدان " من أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز ، وفد عليه قوم من أهل " سمرقند " ، وشكوا إليه " قتيبة بن مسلم

الباهلي " بأنه دخل مدينتهم على غدرٍ منهم وأسكن المسلمين بها ؟ فكُتبَ عمر إلى واليه في الولاية المجاورة وأمره بأن يرفع شكواهم إلى القاضي ، فإن ثبت لديه ما ادعوه ، أمر بإخراج المسلمين من " سمرقند " ، فلما رفعت القضية إلى قاضي المسلمين " ابن خاطر الباجي " حكم بإخراج المسلمين فعجب أهل " سمرقند " من عدالة المسلمين والإسلام وأكبروها ، ودخلوا في الإسلام طائعين .

وهذه الواقعة تدل دلالة واضحة على احترام الإسلام لمبدأ إعلان الحرب ، وازدراؤه لظاهرة الغدر والمفاجأة !! .

ومما يتغنى به التاريخ على مدى الدهر أن السلطان " صلاح الدين الأيوبي " عندما استردّ بيت المقدس ، بذل الأمان للصليبيين ، ووفّى لهم بجميع عهوده ، ورحم المسلمون أعداءهم ، وعاملوهم أحسن معاملة حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف أسير ، ومنّ على جميع الأرمن ، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة ، وأباح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن .

علمًا بأن الصليبيين ذبحوا في يوم واحد في الحرب الصليبية الأولى سبعين ألف مسلم تذبّج النعاج ، حتى إن الدماء كانت تجري أنهارا في شوارع القدس والمسجد الأقصى . . لم يرحموا كبيرا ولا صغيرا ، ولم يوقروا شيخا وقورا ولا امرأة ولا طفلا .

ولنترك الكلام إلى " بورجا " ولنستمع إلى ما يقول في كتابه " الحروب الصليبية " " ١٢٠ " : فقد نقل على لسان أحد الصليبيين الذين شهدوا المعركة شهادة حق حيث قال : " هؤلاء " أي المسلمون " الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم ونساءهم وبشتى الطرق ، وسلبناهم أموالهم ، وأخر جناهم من منازلهم عراة . . تداركونا ، وسدّوا خلّتنا ، وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع ، وما زالوا يحسنون إلينا حتى غمرونا ببرّهم وإحسانهم . . لما كنا أسرى في ديارهم وفي قبضة أيديهم فلو ضاع لأحدنا شيء ما أبطأ أن رده إلى صاحبه " .

فمن هذه الموازنة يتبين الفرق الشاسع بين عدلنا وظلمهم ، وسماحتنا وحقدهم . . ورحم الله من

قال :

ملكنا فكان العدلُ منا سجيّةً فلما ملككمُ سال بالدم أبطح
وحلّتم قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكمُ هذا التفاوتُ بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

فمن هذا الموقف الذي وقفه السلطان صلاح الدين يدل دلالة واضحة على أن السلطان أخذ
بمبدأ ﴿ حتى إذا أئخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ﴾
[محمد : ٤] .

*** وكان للذمين نوع من التأمين الاجتماعي ضدّ الشيخوخة والمرض والفقر . . فإن خالد ابن
الوليد رضي الله عنه حين كان يقود معارك الفتح في العراق أعلن في معاهدة الصلح مع أهل الحيرة -
وكانوا مسيحيين - : " وجعلتُ لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات . . أو كان
غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحتُ جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله
ما أقاموا بدار الإسلام " ^(١) .

وروى " أبو يوسف " في كتابه " الخراج " : أن شيخاً كان يسأل الناس على عهد عمر ابن
الخطاب رضي الله عنه فسأله ما أنت يا شيخ ؟ قال ذمي : " وكان يهودياً " يسأل الجزية والصدقة ،
فقال له عمر : ما أنصفناك أكلنا شبيبتك ثم نضيّعك في هرمك ثم أخذته إلى بيته فأعطاه ما وجده ،
وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : انظر إلى هذا وضربائه " أي أمثاله " فافرض لهم من بيت المال ما
يكفيهم وعيالهم إنما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من مساكين أهل الكتاب " .

وروى " البلاذري " في كتابه " فتوح البلدان " : " أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ وهو في
طريقه إلى الشام بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن ينفق عليهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم ،
وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شؤونه " .

(١) من كتاب الخراج لأبي يوسف ص : ١٤٤ .

وهذه الأمثلة أكبر برهان على أن المواطنين غير المسلمين كانوا يلقون في ظل الدولة الإسلامية كل رعاية وتكافل وإكرام . .

* وجاء في كتاب " فتوح البلدان " للبلاذري : " أن أهل قبرص أحدثوا حدثاً عظيماً في ولاية عبد الملك بن مروان ، فأراد نبذ عهدهم ونقض صلحهم ، واستشار أهل الفتيا من الفقهاء في عصره وهم : الليث بن سعد ومالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة ، فأشار إليه الليث : " إن أهل قبرص لا يزالون متهمين بغش أهل الإسلام ، ومناصحة أهل الأعداء الروم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

وإنا نرى أن تنبذ إليهم عهدهم ، وأن تنظرهم سنة " .

وأما الإمام مالك فقال : " إن أهل قبرص وعهدهم كان قديماً من الولاة لهم ، ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم من ديارهم ، وأنا أرى ألا تعجل بمناذتهم حتى تتجه الحجة عليهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ [التوبة : ٤]

فإن لم يستقيموا بعد ذلك وبدؤوا غشهم ، ورأيت الغدر ثابتاً فيهم أوقعت بهم - بعد التنبذ والإعذار - فرزقت النصر " .

أما سفيان بن عيينة ففتواه مثل فتيا " الليث بن سعد " ، وهي النبذ وإمهالهم سنة . . ولعل فيما سقناه من الأمثال ما يدل على مدى احترام الإسلام للعهود والمواثيق ، وعدم نقضها إلا إذا تحققت أسباب النبذ المشروعة !! .

* وفي الانفتاح على غير المسلمين للاستفادة من علومهم وحضارتهم وترجمتهم . . يقول " أنور الرفاعي " في كتابه " الإنسان العربي والحضارة " ما خلاصته : " في عهد " مروان بن الحكم " نقل الطبيب السرياني " ما سرجويه " إلى العربية كتاباً طيباً باللغة السريانية ، وحفظت هذه الترجمة العربية في دمشق حتى أيام عمر بن عبد العزيز . . " وفي أيام " خالد بن يزيد بن معاوية " أمر خالد الراهب الرومي " مريانوس " أن يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية . . " .

" واستدعى " المنصور " في عهده " جورجيس بن بجيتشوع " السرياني رئيس أطباء
" جنديسابور " ، وكان يعرف اليونانية ، والسريانية ، والفارسية ، والعربية ، فنقل عددًا من الكتب
الطبية إلى العربية . . "

" وفي عصر " الرشيد " تقدمت حركة النقل والترجمة إلى الأمام، فقد عثر " الرشيد في حروبه في
أنقرة وعمورية . . وغيرهما من بلاد الروم على كتب كثيرة حملها معه إلى بغداد " وأمر طبيبه " يوحنا "
بترجمتها ، وأمر البرامكة بنقل كثير من الكتب من الفارسية ، واليونانية ، والهندية . . إلى العربية . .
."

" وفي عهد " المأمون " بلغ المجد العلمي والحضاري ذروته . . ففي عصره ترجمت بعض كتب "
أرسطو " في المنطق ، وبعض مؤلفات " أفلاطون " في الفلسفة ، وأهم كتب " جالينوس " في الطب ،
وكتب " أقليدس " و " أرخميدس " في الرياضات . . وكان المأمون يجلب علماء اليهود والنصارى ويحتفي
بهم في مجلسه لا لعلمهم فحسب ، بل لثقافتهم في معرفة لغة اليونان وآدابها ، وقد أخرجوا من أديرة
سورية ، وآسيا الصغرى ، وسواحل الشام ، وفلسطين كتبًا خطية في الفلسفة ، والتاريخ ، وعلم
الهندسة . . . ثم ترجموها إلى العربية بدقة وعناية فائقة . . وكان " المأمون " يعطي لهؤلاء المترجمين
وزن ما يترجمونه ذهبًا . . احتفاءً بهم وتشجيعًا لهم . "

ولعل فيما سقناه من الأمثلة ما يدل على مدى التعارف والانفتاح الذي سمحت الشريعة به ، وما
ذاك إلا استجابة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل : " الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها
فهو أحق بها " وتنفيذ لقوله تعالى : ﴿ وقل رب زدني علمًا ﴾ [طه : ١٤٤] .

هذا غيض من فيض مما شهد به التاريخ على ظاهرة النزعة الإنسانية المتمثلة في مبادئ الإسلام
، والمتحققة في معاملة الحكام ، والقائمة في عالم الواقع عبر العصور . فقد طوّف نظام الإسلام في الآفاق
شرقًا وغربًا ، وشمالًا وجنوبًا ونزل السهول والوديان ، وساح في الجبال والصحاري ، وتقلب في جميع

البيئات والأمصار ، وعاصر الرخاء والشدة ، والسلم والحرب ، والحضارة ، والتخلف ، وواجه الأحداث في جميع الأزمنة والقرون . . فكانت الحاسنة والمعاملة لأبناء الشعوب لا مثيل لها في التاريخ ، بل كان الانفتاح على الأمم ظاهرة من ظواهر هذا الدين ، بل كان التسامح الذي شهده أصحاب العقائد والملل من حكام المسلمين مفخرة من مفاخر الإسلام . .

واليك - أخي القارئ - شهادة المنصفين الغربيين لهذا التسامح المنقطع النظير:

يقول " أرنولد " في كتابه " الدعوة إلى الإسلام " ص : " ٦٦ - ٦٧ " ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في " فحل " كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب المسلمين يقولون : " يا معشر المسلمين : أتم أحب إلينا من الروم وإن كان الروم على ديننا ، أنتم أوفى بنا وأرأف بنا ، وأكفّ عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا . . " .
" وغلق أهل " حمص " أبواب مدينتهم دون جيش " هرقل " ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم . . " .

" ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق . . فإن الدعوة والإقناع كانا هما الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه ، وليس القوة والعنف . . " ا هـ .

- ويقول " غوستاف لوبون " في كتابه " تاريخ العرب " : " ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب " .

- ويشهد البطريك " عيشوييه " عام ٦٥٦ هـ بسماحة الإسلام حين قال :

" إن العرب الذين مكّتهم الربّ من السيطرة على العالم ، يعاملوننا بعدالة كما تعرفون ، إنهم ليسوا أعداءً للصراينة ، بل يمدحون ملتنا ، ويوقرون قديسنا ، ويمدّون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا ! ! " .

- وإليكم ما يرويه " الأمير علي " عن " مل " المؤرخ الإنكليزي : " ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى أنطاكية المسيحية ، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم ، فطردهم ، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقبلوا بكل ترحاب . . " .

- ويروي القاضي " ابن شداد " في كتابه " النوادر السلطانية " هذه القصة الرائعة :
" لما مرض الملك الإنكليزي " ريتشارد قلب الأسد " - أكبر خصوم صلاح الدين - بعث إليه " صلاح الدين " ورفه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج . . " .

- وسبق أن ذكرنا ما قاله " بورجية " في كتابه " الحروب الصليبية " أن المسلمين : " تداركونا ، وسدوا خلتننا ، وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع ، وما زالوا يحسنون إلينا حتى غمرونا ببرهم وإحسانهم . . " .

ويقول " أرنولد " في كتابه " الدعوة إلى الإسلام " : " لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سبباً في التجاء الكثير من الصليبيين إلى الإسلام ، والدخول فيه . . " .

من هذه الشهادات الصادقة الحقّة يتبين أن التاريخ لم يعرف أنبل ولا أكرم ولا أرحم . . من سماحة المسلمين وعدلهم في معاملة الأعداء فضلاً عن الأصدقاء . . عقت أم التاريخ أن تلد حكماً كأبي بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبدالعزيز ، وصلاح الدين ، . . . وعشرات غيرهم رضي الله عنهم .

وعقت أم الدساتير أن تصنع دستوراً كمبادئ الشريعة الإسلامية ، وأنظمة القرآن الكريم في العمق والموضوعية والدقة والشمول . . لأن العظمة في هؤلاء الحكام أنهم أخذوا بأنظمة القرآن الكريم ، ومشوا على سنته ، والعظمة بالقرآن الكريم أن اختار الله له رجالاً بحكمته ، وساروا على هديه !! .
﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يغنون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [المائدة : ٤٩ - ٥٠] .

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن الحضارة في الإسلام تميزت بشيئين :

- ١ - تميزت بالرقى المادي لكونها شملت - كما مر - جميع جوانب الحياة .
- ٢ - تميزت بالرقى المعنوي لكونها شملت - كما سبق ذكره - مبادئ النزعة الإنسانية ، وعواملها الروحية والخلقية على حد سواء .

وهاتان المزيتان للحضارة الإسلامية تؤكد أن الحضارة في الإسلام ذات طابع إنساني لكونها سبيلاً إلى السعادة البشرية ، وطريقاً لبناء شخصية الإنسان على أساس الاحترام والكرامة . .

أين هذا من حضارة الدول العظمى في القرن العشرين صحيح أن أمريكا وروسيا بلغتا الذروة في الرقي المادي في عصرنا اليوم ، ولكنهما صفر على الشمال في التحضر الإنساني والتعامل البشري !! .

نعم إنهما صفر على الشمال : لماذا ؟

- لأن أمريكا تضع على فنادقها ونواديها لافتات تكتب عليها " للبيض فقط " أو تكتب عليها في وقاحة متناهية " ممنوع دخول السود والكلاب " !! .

- لأن أمريكا مكنت دولة القزم " إسرائيل " في فلسطين بعد أن أخرجت الآلاف من أهلها من ديارهم بغير حق فهاموا على وجوههم مشردين في كل أرض وتحت كل سماء .

- لأن أمريكا سرطان الاستعمار في العصر الحديث ، وكم استعمرت من أمم ضعيفة ؟ وكم استذلت من شعوب صغيرة ؟ وكم امتصت من خيرات دول لا حول لها ولا قوة !! .

- وقس على ذلك " إنكلترا " التي حرمت " الملونين " في أفريقية من حقوقهم البشرية ، وقتلتهم بالجملة ، لأنهم طالبوا بحريتهم حين أحسوا بالكرامة . .

- وقس على ذلك " فرنسا " حين قتلت مئات الأولوف في تونس ، والجزائر ، ومراكش . . لا شيء سوى أنهم طالبوا بالحرية ، والكرامة ، والاستقلال . .

هذه هي الحضارة الغربية على حقيقتها ، وهذه هي المدينة الأوروبية في أوجها كيف يجيزون لأنفسهم رفع الشعارات المزيفة ، وطرح فكرة الوصاية على العالم . . وهذه هي أفعالهم القبيحة ، ومعاملتهم الوحشية ؟!! .

وماذا صنعت الشيوعية ؟

يقول الدكتور " عبد الله عزام " في كتابه " السرطان الأحمر " ص : " ٧٦ " :

١ - [في تركستان الشرقية : احتلها الصين سنة " ١٩٣٤ " بمساعدة الجيش الأحمر الروسي

وقتلوا " ١ / ٤ " مليون مسلم " من المفكرين والعلماء والشباب . .

٢ - قامت الثورة الصينية سنة " ١٩٥٢ " فقتلت " ١٢٢ " ألفاً من المسلمين .

٣ - في يوغسلافيا :

أباد " تيتو " بعد الحرب العالمية من المسلمين " ٢٤ " ألفاً

٤ - في القرم :

أبادت الشيوعية سنة " ١٩٢١ " " مائة ألف " . . .

٥ - في القفقاس : نفى " ستالين " إلى سيبيريا وأذربيجان حوالي مليونين من المسلمين ، وهدم

المساجد ، وحولها إلى اصطبلات ، ودور للسينما ، ومراكز للحزب ، وأماكن للترفيه . .

٦ - في تركستان الغربية :

كان مجموع ما قتل من المسلمين فيها " ٦ " ملايين مسلم سنة " ١٩١٩ " ، هرب منها مليون

ونصف .

عدا عن ثلاث ملايين قتلوا ما بين سنة " ١٩٢٠ - ١٩٥١ " م .

وقد ثبت بالإحصائيات الروسية : أن " ستالين " قد قتل " ١١ " مليون من المسلمين .

ولا شك أن هذه الهمجية والاستعباد ، وخنادق القتل الجماعي ، ومساح حمامات الدم . .

وصمة عار في جبين الإنسانية ، بل وحشية متناهية لم يشهد مثلها التاريخ . . ﴿ وما تقموا منهم إلا أن

يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴿١﴾ ، وما اقترفوا من إثم سوى أن قالوا : إننا نرفض اعتناق مبادئ الكفر والإلحاد ، فكان هذا مصيرهم وجزاءهم . . .

ودع عنك ما يفعله الروس الآن في " أفغانستان " المسلمة ، فإنهم سلوا جيوشهم الجرارة ، وقوتهم الجبارة ، ووسائل حربهم الحديثة . . ليقهروا - بزعمهم - الشعب المسلم هناك ، ويكرهوه بالقوة على اعتناق الشيوعية ، ولكن خاب فآلمهم ، إن الثوار المسلمين مصممون على الجهاد حتى آخر رمق . . وسيكون النصر بإذن الله حليفهم . . بل ستكون " أفغانستان " مقبرة للروس الملحدين ، والشيوعيين المارقين . . ﴿٢﴾ وسيعلم الذين ظلموا أيّ متقلب ينقلبون ﴿٣﴾ ؟!! .

أين هذا كله من إنسانية الإسلام ، وحضارة الإسلام ، وسماحة الإسلام ، وعدالة الإسلام ؟!! .
﴿٤﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿٥﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

* * *

الفصل الخامس :

هل استفدت الحضارة الإسلامية أغراضها ؟

سبق أن ذكرنا في فصول ماضية أن الحضارة الإسلامية بلغت من النضج والازدهار . . ما جعلها بحق أن تكون أستاذة الحضارات في فترات طويلة من التاريخ بل كانت البشرية شرقاً وغرباً تنهل من سلسيلها العذب ، وترتشف من معينها الصافي على مدى العصور ، وكرّ الدهور . . بل إن أوروبا

بأسرها - كما اعترف رجال الفكر فيها - لم تنهض حضارياً ، ولم تتقدم علمياً ولم تنضج فكرياً . . إلا بفضل ما أخذوه عن المسلمين من علوم حضارية حية ، ومعارف كونية متجددة!! .

إذن فما الذي أصاب المسلمين اليوم ؟ .

هل الذي أصابهم من تخلف حضاري ، وانحسار سياسي ، وتفكك اجتماعي . . لأن الإسلام لم يعد صالحاً لهذا الزمن ، أو لأن مفاتيح الحضارة التي وجدت في الماضي لم تعد صالحة اليوم ؟!! .
في الحقيقة ليس هذا ولاذاك ! . .

لأن الإسلام يتسم بالخصائص التالية :

يتسم بالربانية لأنه تنزيل من حكيم حميد .

ويتسم بالعالمية لأنه شريعته البشرية جمعاء .

ويتسم بالشمول لأنه تنزل لمنهاج الحياة .

ويتسم باليسر لأنه دين التيسير ورفع الحرج . .

ويتسم بالتجدد لأنه يفي بمجالات البشرية في كل زمان ومكان .

ويتسم بالخلود لأن الله تكفل حفظه إلى يوم الدين . .^(١)

ومن هنا نعلم السر في قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت

لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] .

ويكفي الإسلام خلوداً وعظمة أن يشهد لصلاحيته كبار رجال القانون الوضعي في الغرب ، وهي

شهادات معللة تحمل في عباراتها براهين صدقها ، بل معترفة بسبق الشريعة وفضلها وتفوقها . .

ولا بأس أن نسوق هنا بعض هذه الشهادات للذين لا يزالون يثقون بالفكرة إذا هبت ريحها من

جهة الغرب :

^(١) إن أردت عزيزي القارئ أن تعرف خصائص الشريعة والسر في صلاحيتها وخلودها . فارجع إلى كتاب "الإسلام شريعة الزمان والمكان" للمؤلف .

- يقول الدكتور " إيزكو انساباتو " : " إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من مجوئها الشرائع الأوروبية ، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً " .

- ويقول العلامة " شبرل " عميد كلية الحقوق بجامعة " فيينا " في مؤتمر الحقوق سنة " ١٩٢٧ " :
" إن البشرية لتفتخر باتساق رجل كمحمد - صلى الله عليه وسلم - إليها ، إذ رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون ، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة " .

- ويقول الفيلسوف الإنكليزي " برنارد شو " قوله الخالدة : " لقد كان دين محمد موضع تقدير سامٍ لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة ، وأنه الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، وأرى واجباً أن يدعى محمد - صلى الله عليه وسلم - منقذ الإنسانية ، وإن رجلاً كشاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث فسوف ينجح في حل مشكلاته .. " .

- ويقول المؤرخ الإنكليزي " ويلز " في كتابه " ملامح تاريخ الإنسانية " : " إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية .. " .

أما المؤرخ الفرنسي " سيديو " فيؤكد : " أن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهي في مذهب الإمام مالك هو " شرح الدردير " على متن خليل " .

ويكفي الإسلام عطاء وتجديداً أن تشهد المؤتمرات الدولية على صلاحيته وملكة خلوده على مدى الزمان والأيام :

١ - ففي مدينة " لاهاي " انعقد مؤتمر دولي للقانون المقارن سنة ١٩٣٧ .

ب - وفي نفس المدينة - لاهاي - انعقد مؤتمر المحامين الدولي سنة ١٩٤٨ .

ح - وفي " باريس " عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي .. مؤتمراً تحت اسم " أسبوع الفقه الإسلامي " سنة ١٩٥٠ .

وقد سجلت هذه المؤتمرات . القرارات التاريخية التالية :

- ١ - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرًا من مصادر التشريع .
- ٢ - وإنها حيّة قابلة للتطور .
- ٣ - وإنها شرع قائم بذاته ليس مأخوذاً عن غيره
- ٤ - يجب على جمعية المحامين الدولية أن تبني الدراسة المقارنة لهذا التشريع . . نظراً لما في التشريع الإسلامي من مرونة .
- ٥ - إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها . . .
- ٦ - بإمكان الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة ، والتوفيق بين حاجاتها . .

أما عن مفاتيح الحضارة :

فإنها قائمة بذاتها في كل زمان ، حاملة بذور نمائها في كل مكان ، مجمع عليها لدى أصحاب الاختصاص والعرفان . . لماذا ؟ .

لأنها تعتمد على مبدأ العلم ، وهل أحد ينكر أثر العلم على الحضارة ؟
وتعتمد على مبدأ التفكير في ملكوت الله ، وهل يخفى على إنسان ما للتفكير من أثر في استجلاء المعرفة ؟

وتعتمد على مبدأ تكريم الله للإنسان بأن وهبه العقل ، وجعله مستخلفاً في الأرض ، وسخر له جميع ما في الكون . . مَنْ من البشر يماري في هذا ؟
وتعتمد على مبدأ المساواة الإنسانية في المساهمة ببناء الحضارة ، مَنْ من العقلاء يجادل في هذا ؟

وتعتمد على مبدأ الانفتاح والتعارف على كل البشر ، مَنْ من الناس ينكر هذا ؟
فهذه المفاتيح التي جاء بها الإسلام في بناء الحضارة أمر مجمع عليه لدى أهل العلم والمعرفة ، وأصحاب الخبرة والاختصاص . . ولا يمكن أن ينكرها إلا مكابر . .

فهي إذن مفاتيح للحضارة فى الماضي، ومفاتيح للحضارة فى الحاضر ، ومفاتيح للحضارة فى المستقبل ، ومفاتيح للحضارة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها . .

نرجع إلى السؤال : فما الذي أصاب المسلمين اليوم ؟ .

الذي أصاب المسلمين اليوم :

- * أنهم أصبحوا لا يؤمنون بذواتهم وشخصيتهم الإسلامية . .
- * أنهم انساقوا وراء مبادئ أرضية ما أنزل الله بها من سلطان .
- * أنهم انحازوا لرأسمالية مستعمرة فاجرة أو لشيوعية ملحدة كافرة . .
- * أنهم لم يحتكموا للمنهج الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه . .
- * أنهم ظنوا التحضر فى التقليد الأعمى ، والاختلاط الآثم ، واللذة الفاجرة . .
- * أنهم استسلموا لمفاتن الدنيا ، وكرهوا الموت فى سبيل الله . .
- * أنهم آثروا الحياة الفانية على الحياة الباقية . .

والنبي صلى الله عليه وسلم حذر أمة الإسلام من كل هذا :

- أخرج الفريابي والدارمي وأبو داود . . عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكف قد كتبوا فيها ما سمعوه من اليهود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كفى بقوم حقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم " فنزلت : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾

[العنكبوت : ٥١] .

وفى رواية البيهقي : " والذي نفسى بيده ، لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني ضللتُم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظي من الأمم " .

- وروى أبو داود عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم

غناء كغناء السيل ، ولينزعنَّ الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن ، قالوا :
وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت " .

- وروى الحاكم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " . . وما حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلب عليهم عدوهم فاستنفدوا ما في أيديهم ، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم " .

- إذن سرّ الوهن والتخلف والتسلط . . الذي أصاب المسلمين اليوم كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام .

هو الانسياق وراء مبادئ أرضية ما أنزل الله بها من سلطان .
هو احتكام الأمراء والحكام بغير شريعة الإسلام .
هو حب الدنيا وكراهية الموت . .

وما دام المسلمون اليوم : يملكون شريعة هي من أنضج الشرائع عطاء وتجددًا وشمولاً .
وما دام بأيديهم مفاتيح الحضارة ، وعوامل وجودها . .
وما دام يملكون المواد الخام والثروات الطائلة . .
وما دام فيهم الطاقات الهائلة القادرة على الإبداع . .
وما دام فيهم النبوغ والذكاء وتفتح العبقرية . .
وما داموا يعدون ألف مليون من البشر . .
وما دامت أوطانهم تقع في قلب العالم ، وهي شبه متصلة . .
وما دام المسلمون يجمعون هذه الخصائص وتوفر فيهم هذه المزايا . .
فباستطاعتهم اليوم أن ينهضوا بالحضارة الإسلامية كما نهضوا بها من قبل .
وبقدرتهم أن يحملوا إلى العالم إمامة العلم والثقافة والمعرفة . .

وبإمكانهم أن يستعيدوا وصايتهم على البشرية من جديد . .

إن العالم غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات . .

" إن التسلط المادي ، والطغيان العلمي المزعوم أصاب النفوس الإنسانية بالقلق والغربة

والضياع . .

لقد عملت المادة على قتل المعاني الروحية في الإنسان المعاصر ، وتلويث فطرته الإنسانية ،

وإفساد طبيعته المتصلة بالله . . وكان من نتيجة ذلك أن نرى إنسان هذه الحضارة المادية يعيش في فراغ

روحي يستولي عليه التوتر العصبي ، والاضطرابات النفسية . . ولذلك نراه يبحث عن الخلاص أو

الراحة في الانتحار ، أو المخدرات . . وغيرها من أمراض العصر وآفاته .

إن الانتحار هو السبيل الأسهل لسد الفراغ الروحي في المجتمعات الصناعية المادية . وهذه

المشكلة تزداد حدة وتعقيداً في تلك المجتمعات !! .

يقول " د . د . هانكوف " في كتابه " الانتحار ١٩٧٩ " : " إن النسبة المئوية المعتمدة لحالات

الانتحار في الولايات المتحدة بين " ١٠ - ١٢ " لكل " ١٠٠ " ألف نسمة . . وفي النمسا ، والمانيا

الغربية ، وهنغاريا ، واليابان ، وتشيكوسلوفاكيا ، والدنمرك ، وفنلندا ، والسويد ، وسويسرا ، ترتفع

النسبة إلى " ٢٥ " لكل " ١٠٠ " ألف نسمة . وتبلغ حالات الانتحار في الولايات المتحدة سنوياً حوالى

" ٢٢ " ألف حالة ، ولكن كثيراً من الخبراء يرون أن الرقم الحقيقي هو ضعف هذا الرقم . . " .

ومن اتجاهات التنفيس عن الفراغ الروحي في المجتمعات الصناعية المادية الاتجاه إلى المخدرات ،

والإدمان على الخمر والكحول . . ويؤدي هذا الاتجاه إلى مشكلات نفسية وعقلية إلى جانب آثاره

الاجتماعية .

يقول " مورلاند " في كتابه " المشكلات الاجتماعية في أمريكا " : إن المدمنين على الخمر

يشكلون نسبة كبيرة من الذين يدخلون المستشفيات العقلية . . "

وفي دراسة " لوزارة المواصلات الأمريكية " : وجد أن الخمر تساهم في قتل " ٣٠ " ألف شخص سنوياً في حوادث الطرق ، وأن مليونين من الأشخاص يصابون بجروح بالغة في هذه الحوادث !! .

كما أن الخمر تساهم في تصعيد السلوك الإجرامي ، فتقرير ال " ا ف . ب . اي " - وكالة التحقيقات الفدرالية الأمريكية - يذكر أن " ٢٠ " بالمئة من المقبوض عليهم عام " ١٩٧٢ " كان بسبب أنهم مخمورون ، وعددهم مليون وربع مليون !! .

وفي تقرير للاتحاد القومي للصحة العقلية سنة ١٩٧٤ في أمريكا ، وجد أن الأمراض العقلية تؤثر في " ٢٠ " مليون أمريكي ، وأن " ٥٠ " ألف طفل يعانون من أمراض عقلية ، وأن الأمراض العقلية أهم مشكلة تواجه المجتمع الأمريكي !! .^(١)

هذا عدا عن وجود الجنس الثالث الذي ظهر في النساء العاملات . . وعدا عن فضائح الجنس التي تفاقم أمرها في كل مكان . . وعدا عن ظواهر الميوعة والانحلال التي استشرت حدتها على الموائد الخضراء والليالي الحمراء في عصور الانتكاس والضللال . .

وما أدق ما قاله رئيس بلدية " كليفلاند " في تصوير الواقع الغربي حين قال : " إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر ، بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات !! . . . " .

فما الخلاص من هذه المادية الطاغية ؟

وما المنتقد من هذه الشهوات الهابطة ؟

وما السبيل إلى إنسانية فاضلة ؟

الخلاص أن يحمل المسلمون إلى العالم مشعل الحضارة الإنسانية الهادية . .

(١) من مقال كتبه الأستاذ " عبد القادر طاش " بعنوان " الحضارة المادية والغربة الروحية " في مجلة الإيمان اللبنانية ذات العدد ٥٢ السنة الثانية .

المنقذ أن يتحرك شباب الإسلام لحمل رسالة الإسلام الخالدة من جديد . .
السبيل أن تحتكم الإنسانية إلى شريعة الله الربانية التي ما قصرت عن العطاء لكل عصر ، وما
قعدت عن الوفاء بأي مطلب . .

وأتم يا شباب الإسلام :

لا شك أن الإنسانية اليوم مريضة ، وأن مجتمعات المسلمين غائصة في الفساد والانحلال . وأنها
بأمس الحاجة إلى من ينتشلها إلى المصحات والمشافي ، ومن يأخذ بيدها إلى سفينة النجاة ، وشاطئ
السلام . .

وإن كان لهذه الإنسانية من أمل إنقاذ ، ومجتمعات الإسلام من رجاء إصلاح . .
فأتم - يا شباب الإسلام في كل مكان - أملها ورجاؤها ، وسر نهضتها وهدايتها - فأعطوا
غيركم القدوة الصالحة في كل شيء : في العبادة ، في الأخلاق ، في المعاملة ، في الثبات ، في الحركة ، في
التضحية ، في التوعية . . في كل ما يميزكم عن غيركم ، ويشير إليكم . . ويدل عليكم . . عسى أن
يتأسى الناس بكم ، ويستجيبوا لدعوتكم ، ويكونوا أعضاء في صف جماعتكم الرائدة ، ولبنات في صرح
الكيان الإسلامي الشامخ . .

أعرفون يا شباب ؟

إن الاسلام العظيم وصل إلى جنوب الهند ، وسيلان ، وجزر لأكديف ، ومالاديف ، في المحيط
الهندي ، وإلى التبت ، وإلى سواحل الصين ، وإلى الفيليبين ، وجزر أندونيسيا ، وشبه جزيرة
الملايو . . وصل إلى أواسط إفريقية في السنغال ، ونيجيريا ، والصومال ، وتنزانيا ، ومدغشقر ، وزنجبار
، وغيرها من البلاد !! .

وصل الإسلام إلى كل هذه البقاع بواسطة شباب مسلمين ، وتجار مؤمنين أعطوا الصورة الصادقة عن الإسلام في سلوكهم وأخلاقهم وحسن معاملتهم . . ثم أعقب ذلك الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والدعوة اللطيفة . .

فدخل الناس في دين الله أفواجا ، وآمنوا بالدين الجديد عن رغبة واقتناع وطوعية !! .
فما أجدركم - يا شباب - اليوم أن تميزوا على غيركم بالأخلاق الفاضلة ، والمعاملة الطيبة . .
والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . . لتكونوا في العالمين أقمار هداية، وشموس إصلاح ، ودعاة خير وحق !! .

وكم يسرّ الدعوة الإسلامية أن تجد من جنودها ودعاتها . . شباباً مؤمناً طاهراً واعياً مندفعاً . . يحسدون مبادئ الإسلام في سلوكهم ، ويصوغون فكرته في أشخاصهم ، ويترجمون فضائله في حركاتهم وأفعالهم ؟ .

ولما نرى في عصرنا اليوم هؤلاء النماذج من الشباب وهؤلاء النوعيات من الدعاة . . فعندئذ نستبشر خيراً في هداية الكافرين ، وإصلاح الفاسقين . بل لابد أن نعطي الحضارة الإسلامية في العالم كله أكلها وثمارها وأن تحصد الحركة الإسلامية الواعية في ميدان الدعوة والتبليغ . . ملايين الغرسات الإيمانية في مختلف بقاع العالم هنا وهناك . . لاعتناقهم الإسلام، ودخولهم في دين الله . .

وهأنذا ألمح بعين الأمل والتفاؤل طلائع الإسلام تزحف في الأفق . . لتحمل إلى العالم أجمع رسالة الإسلام الخالدة ، ومشعل الهداية الربانية الباقية . .

وإن شاء الله فلن يمر بضع سنوات حتى نرى بأم أعيننا بلاد المسلمين قد توحّدت ، وتعاليم القرآن قد حكمت ، وحضارة الإسلام قد بزغت !! . . وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . .

فيأشباب :

شيدوا بسواعدكم الفتية صرح الإسلام العتيد ، أعيدوا بعزائمكم المتينة مجد الجدود العريض ، أعلنوا للدنيا : أننا أمة الحضارة ، أمة الأجداد ، أمة الخلود !!

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم

بما كنتم تعملون ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *